

سعود السنعوسي

خَمَامُ الدَّارِ

أحجية ابن أزرَق

جديد بدش
jadidpdf.com

رواية



منشورات دفاف
DIFAT PUBLISHING

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arabia Scientific Publishers, Inc.

WWW.JADIDPDF.COM

حَمَامُ الدَّارِ

أُحْيِيَةُ ابْنِ أَزْرَقِ

تم تحميل الكتاب من موقع جديد بـدـف

لتحميل المزيد من الكتب الحصرية والرائعة

زوروا موقع جديد بـدـف

www.jadidpdf.com

حَمَامُ الدَّارِ

أُحْجِيَّةُ ابْنِ أَزْرَقَ

رواية

سعود السنعوسي

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc. LLC

الطبعة الأولى: تشرين الثاني/نوفمبر 2017 م - 1439 هـ
الطبعة الثانية: تشرين الثاني/نوفمبر 2017 م - 1439 هـ

ردمك 9 2377-01-614-978

جميع الحقوق محفوظة

 facebook.com/ASPArabic

 twitter.com/ASPArabic

 www.aspbooks.com

 asparabic

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 785108 - 786233 - 785107 (1-961+)

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

منشورات ديفاف
DIFA PUBLISHING

هاتف الرياض: +966509337722

هاتف بيروت: +9613223227

البريد الإلكتروني: edition.difa@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

لوحة الغلاف والرسوم الداخلية للفنانة: مشاعل الفيصل

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

العَهْدُ الْقَدِيمُ

صباحاتِ عِرْزَالِ بْنِ أَزْرَقِ

كَلِمَة

.. تعدّی الخمسين مِن عُمره، عاشَ منها عشرين عامًا

خاليّة من أيّ أحداث، حتّى فاجأته ذاتَ يومٍ حمامة!

باتريك زوسكيند

قَبْلَ سَاعَةٍ تَأْمُلْ

«إلى هنا يكفي هذا الهراء»

يكفي هذا العبث والإصرار على كتابة ما لن يكتب. لا شيء
يُجبرني على مواصلة الكتابة. لا شيء. على الكاتب أن يتواضع أمام
عجزه أحياناً، وأن يكف عن المحاولة.

أنا في غرفة المكتب منذ الصباح، أشكو لزوجتي التي أشتاق
ضيق صدري وحيرتي في أمري. أَسِنْدُ جِئني إلى كَفِّي اليُسرى والوخزُ
في كَفِّي اليُمْنى لا يزال. عيناى على أوراقٍ بين مِرْفَقَيّ، فوق سطح
مكتبي، تحمِلُ مخطوط نصّ احترتُ في أمره. تمسحُ زوجتي على
كتفي. تهبطُ كَفُّها، مروراً بذراعي، وصولاً إلى كَفِّي اليُمْنى تمسحُ
على الضمادة الطبية برفق.

«ما زلت تشعرُ بالآلامِ الحرق؟»

أُطْلِقُ زفرةَ حرّى والحرق في قلبي. أُلصِقُ رأسَ سَبَّابتي برأسِ
إيهامي بحذر. أَقْرُبُهُما إلى وجهي أنظرُ فيهما. أَجِئُها مُهَوَّنًا:
«ما دمتُ قادِرًا على الإمساكِ بفرشاةٍ أو قلم..»

أهزُّ رأسي مُردِّفًا:

«..أنا بخير».

تُلَوِّحُ لي بعلبةٍ مرهم الحروق. أنفضُ رأسي:

«لا حاجة لي به منيرة!».

تبتسم. تترك الغلبة على طرف المكتب. تُسندُ كَفَّها على صلعتي.
تمسحُ برفق. تذكّرني بثلاث عشرة رواية، وأكثر من ثمانين قِصَّة،
وأربع مسرحيات وفيلمين سينمائيين وعشرات اللوحات التشكيلية،
أعمال أصابت من النجاحِ قدراً وإفزا طيلة مشواري الأدبي والفني
الذي جاوزَ الثلاثين عاماً. عيناَي على النَّص لا تزالان. تهبطُ زوجتي
بكفَّيها إلى كِفَفي تعصُرُهما في حين تضغطُ بإبهاميها عضلات رقبتي:
«يبدو أنك نسيت شيئاً ما».

أدرتُ رأسي جانباً أنظرَ إليها مُستفهِماً. ابتسمت. انحنيت تلمُّ
وجتي. نفخَ طيِّبها الذي أُحِبُّ وأفتقد:

«إنه يومٌ استثنائي.. حضّر نفسك لنحتفل هذا المساء».
أطلقتُ تنهيدةً ولم أحر جواباً. قرصت موضعَ قُبَلتها في وجتي
قبل أن تنصرف:

«حبيبي! هي ليست المرّة الأولى! دُرّجك السُّفلي يَغُصُّ
بمخطوطاتٍ مؤجلة وفي المرسوم عشرات اللوحات قيد الإنجاز».
هي لا تفهم. هذا النَّصُّ شأنٌ آخر. ليس لما تركته فيه، بل لما
تركةُ فيّ. أردتُ أن أشرحَ لها، لكنني مثلها لا أفهم. انصرفتُ عن كُلِّ
شيءٍ مساءً أمس، وفي الفجر وضعتُ ورقةً بيضاء صفيلاً كغلافٍ فوق
الصفحة الأولى من المخطوط النَّاقص، ورقة من أوراقٍ فاخرة مطبوعٌ
في زاويتها السُّفلى يساراً كلمة «مشروع رواية»، دَيِّتُ استخدامها
كتعويذة وفألٍ حَسَنٍ مع بداية كُلِّ عملٍ أشرعُ في كتابته. أمسكتُ
بالقلمِ أخطُ عنواناً مؤقتاً في الأسفل: نَصُّ لقيط!
لا أدري ما الذي صرفني عن كُلِّ مشاريعي الكتابية المؤجلة.

وجدتني مُنصرفاً إلى شخصيةٍ جاءت من لا أدري، أجبرتني على كتابة شيءٍ منها على سبيلِ العودةِ إليها لاحقاً. شخصيةٌ لا أفهمها أخذتني صوبها وأبعدتني عن كُلِّ شيء. فتحتُ ورقة بيضاء جديدة لأدوّن أفكارِي حول هذا الذي تسَلَّل إلى رأسي فجأة. وجدتني ألَهْتُ في الكتابة؛ شخصٌ مضطربٌ اسمه عِرزال بن أزرق! حتى الاسم غير مألوفٍ لا أدري من أين جاء. أنا لا أملك تصوراً حول ما كتبت. لا الزمن معروفٌ بالنسبة لي ولا المكان ولا الشخصُوص التي تُحيط بالبطل. بطل؟! الكلمة ذاتها تمنحُ صاحبها قيمةً أشكُّ في وجودها! أَلَيْسَني أكتب وحسب. أكتبُ عمّا لا أعرف. أكتبُ بكفٍّ مُلتهبة. أنا لا أزعِمُ ما يزعمه بعضُ الكُتّاب حول ما يشبه الماورائيات التي يتحدثون عنها، كأن يردُّون أصلَ كتاباتهم إلى وَحْيٍ أو إلهام، متوسلين مزاعمهم أن تمنحُ نصوصهم الفارغة هالةً زائفةً تُبهرُ قارئاً مُحتملاً، لكنني كنتُ أكتبُ وحسب. أكتبُ وفقاً لدافعٍ أجهله. أكتبُ لأدركُ مشهد انتحار تلك الشخصية، وحينما اقتربتُ منه لم أقوَ على قتلها! شرعتُ في الكتابة قبل غروب يومٍ أمس. خرجتُ بنصٍّ غير مكتملٍ كُتِبَ دفقةً واحدة. نسيْتُ تماماً التهَابَ كَفِّي. لم أكن لأنتيبه إلى غيابِ انتابني أثناء الكتابة لولا ارتفاع الأذان من المسجد القريب من بيتي. التفَتُّ إلى النافذةِ وإذ بالظلام يلوّنُ ما وراءها. كم ليثُ أكتب؟! ختم المؤذنُ بداءه فيما يُشبه ردّاً على سؤالي. الصلاةُ خيرٌ من النُوم. تنبّهتُ. صلاة الفجر! نظرتُ إلى ساعة الحائط غير مُصدّق. كنتُ غائباً تمام الغيابِ لاثنتي عشرة ساعة! رحتُ أتلُفُ في غرفةِ المكتب كَأني لم أَكُن فيها طيلة ساعاتِ الكتابة. أسمعُ وجيبَ قلبي في أذني. من أين جاء شَرَه السَرَدِ هذا؟ أنا أَضِيع وقتاً من المفترض

أَن أُخَصِّصَهُ لمشاريعي الأخرى. رَحْتُ أَذْرُعُ غُرْفَةَ مَكْتَبِي جِيئَةً وَذَهَابًا أَفَكَّرْتُ فِيمَا أَصَابَنِي. أَنَا لَسْتُ عَلَى مَا يُرَام. مشاريعي المَوْجَلَّةُ فِيهَا مِنَ الشُّخُوصِ مَا لَا تُسَعِّفُنِي ذَاكَرَتِي لِحَصْرِهِ، لَيْسَ عِرْزَالُ بْنُ أَزْرَقٍ وَاحِدًا مِنْهَا، وَلَا حَتَّى بِاسْمٍ آخَرَ غَسَلْتُ وَجْهِي. أَعْدَدْتُ كُوبَ قَهْوَةٍ. عَدْتُ إِلَى النَّصِّ اللَّقِيطِ الَّذِي وُلِدَ مِنْ دُونِ فِكْرَةٍ أَقْرُوهُ. أَحَاوَلْتُ أَنْ أُعِيدَ عِبْتُ النَّصِّ إِلَى جَذْرِ مَتَوَارٍ فِي ذَاكَرَتِي، مَوْقِفٍ سَابِقٍ، أَوْ فِكْرَةٍ قَدِيمَةٍ غَيْرِ مَكْتَمَلَةٍ كُنْتُ قَدْ أَذْخَرْتُهَا وَحَانَ أَوَانُ نَضُوجِهَا. عَجَزْتُ. لَا أَصِلُ لِهَذَا النَّصِّ! مَا الَّذِي أَرَدْتُ قَوْلُهُ؟ وَمَنْ يَكُونُ عِرْزَالُ بْنُ أَزْرَقٍ هَذَا الَّذِي لَا يُغْرِي بِكَتَابَتِهِ أَبَدًا؟! مَا كَدْتُ أَنْهِيَ تَسَاوُلَاتِي حَتَّى جَاءَتْ مَنِيرَةُ زَوْجَتِي تَحْمِلُ مَرْهَمَ الْحُرُوقِ.

أَنَا أَعْرِفُ الْقَلِيلَ عَنْ شَخْصٍ رَوَايَاتِي قَبْلَ الشَّرُوعِ فِي كِتَابَتِهَا، وَمِنْ ثَمَّ أَتَعَرَّفُهَا أَكْثَرَ أَثْنَاءَ الْكِتَابَةِ، تُسَلِّمُنِي نَفْسُهَا طَوْعًا. تَتَكَشَّفُ أَمَامِي صَفْحَةٌ تَلُو صَفْحَةً، أَمَا بَطْلِي الْمَزْعُومُ فَلَمْ أَعْرِفْ عَنْهُ قَلِيلًا قَبْلَ الْكِتَابَةِ، وَلَمْ يَتَكَشَّفْ لِي كَثِيرٌ مِنْهُ أَثْنَاءَهَا. حَاوَلْتُ أَنْ أَكْمِلَ مَا كَتَبْتُ لَعَلِّي أَصِلُ إِلَى شَيْءٍ... أَيِّ شَيْءٍ يُفَسِّرُ لِي غِيَابِي مَعَ شَخْصِيَّةٍ أَجْهَلُهَا تَمَامَ الْجَهْلِ. فَصُولٌ خَمْسَةٌ يُمَثِّلُ كُلُّ فَصْلٍ مِنْهَا صَبَاحًا انْتَقَيْتُهُ مِنْ صَبَاحَاتِ شَخْصِيَّةٍ كَهَلٍ مُضْطَرَبٍ مُرِيبٍ مِمَّنْ مَنْصَرَفٍ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا بِضْعَةِ اهْتِمَامَاتٍ نَافِئَةٍ تُلْفُهَا الْغَرَابَةُ؛ قِرَاءَةُ مُذَكَّرَاتٍ غَامِضَةٍ، وَتَطْفُلٌ عَلَى حِمَامَةٍ تَمَكُّثُ فِي دَكَّةٍ نَافِذَتِهِ، يُزَاجِمُهَا مَسَاحَتُهَا الصَّغِيرَةَ، يَرَى حُلْمًا يَوْمِيًّا لَا أَرَى مِنْهُ إِلَّا أَجْزَاءَ مَبْتُورَةٍ لَا تُسَعِّفُنِي مُخَيَّلَتِي عَلَى إِتْمَامِهَا. شَخْصِيَّةٌ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُلْقَى بِنَفْسِهَا مِنَ النَّافِذَةِ انْتِحَارًا وَلَكِنَهَا، لِسَبَبٍ أَجْهَلِهِ، لَا تَفْعَلُ. عَادَتِي إِذَا مَا تَعَثَّرْتُ بِنَصِّ، يَمْسِكُ عَنِ الْمَضِيِّ بِي إِلَى صَفْحَةٍ

جديدة، أن أفرغ نفسي لساعة تأمل، أمضيها مُترَبِّعًا على مقعدي وراء المكتب، صامِتًا مُغمَض العينين أَتَفَكَّرُ بتفاصيل النَّصِّ غير المكتوبة، حتى إنني أو غِلُّ في تأملي سفرًا إلى موطنِ كِتَبَتِهِ، أو استحضارًا للشخوصِ في مكتبي. أطلبُ منها الجلوسَ على المقاعدِ أمامي، أو نتحلَّق جميعًا في جلسةٍ أرضية. أَتَفَخَّصُ ملامحها مُتَوَرِّدةً في حضرتي. أَمْنَحُها سِمَاتٍ ومَلامَحَ لم تكن موجودةً في مُخَيَّلَتِي قَبْلًا، أَزِيلُ شامَةً من وجنةٍ عجوزٍ متصاية، أَرَسُمُها أسفلَ شَفَةِ فتاةٍ مغناج تُثيرني كِتَابَتُها، أَمْنَحُ غِلْظَةً لصوتِ شَيْخٍ تَهَبُهُ نَوَازِنًا يُشَبِّه شخصيته، أَثْقِلُ لِسَانَ ثَرَاةٍ أَبْطَلِيها بِتَأْتَاةٍ تَحْدُ مِنْ ثَرَثَرَتِها، وَأُخْصِي مَفْتُولَ عضلاتٍ أَكْسَرُ عُنُوهُ وَغُرُورَهُ بجسده! أَفْرُغُ من تشكيلِ الشَّخْصِيَّاتِ فيما هي تمثُلُ أمامي مُذْعنة. أَحَادِثُها. أَسْتَمِيلُها للحديثِ عن نفسها. أَسْتَجِوبُها في أيِّ شيءٍ داخلِ النَّصِّ أو حتى خارجه. أَتَعَرَّفُها أَكْثَر. أَدْفَعُها لِفَتْحِ حِوَارَاتٍ فيما بينها. أَسْتَنْطِقُ إحداها بما يُزَعَجُ الأخرى، لَعَلِّي بالاستفزاز أنال بُغْيَتِي، وأكون في موضعِ المتفَرِّجِ، عسى أن تُنَبِّهني انفعالاتها وحواراتها إلى مساحَةٍ أَغْفَلْتُها أَثناءَ الكِتَابَةِ المتعثرة، أَبْنِي فيها جِسْرًا أَمْدُهُ إلى صفحةٍ جديدة.

هذا ما أَعْتَزِمُهُ مع تلك الشخصية الوليدة تَوًّا. أعني قبل اثنتي عشرة ساعة. لَعَلِّي أَعُودُ إلى المخطوطِ المتعثرِ بعد ساعةٍ وأنا أعرفُ شيئًا عن عِرْزالِ بْنِ أَرْق. أي شيءٍ يُعِينِي على إِنْهَاءِ قِصَّتِهِ بِقَتْلِهِ انتحارًا من نافذةِ غُرْفَتِهِ الباردة، لينتهي النَّصُّ الذي كُتِبَ بِكُفٍّ محروقة، أو لتُكْمِلَ بقيةَ الشَّخْصِيَّاتِ النَّصِّ من دونه.

مشروع رواية

«نصٌ لقيط»



صباحُ أوّل

«.. ثم أطبق أسنانه على طرف ثوبه وراح يركض كالمجنون!».

انتفض عرزال في سريره كأنما منه برق. أبقى جفنيه مُطبقين. يستعطف كابوسه الأزرق الدائم، يستمهله قبل أن ينتهي به رايضا مثل مجنون، يحاول إبقاءه لعله يمنحه رؤية من يحب. يستشعر نبض قلبه في صدغيه. يهدأ. يتلاشى طعم الملح في فيه. يُمعن التفكير. يتلع ريقه بصعوبة وهو يمسح قطرات عرق نضحتها صلعتة. على هذا النحو يستفيق عرزال بن أزرق كل يوم منذ أمس.

يفتح عينيه يتحاشى النظر إلى السقف. يلتفت صوب النافذة. الحمامة قريبة من هنا، أو أنها سوف تكون، بعد غياب صباحي لا يطول. تعود حتماً إلى الدكة البارزة أسفل نافذة غرفته، في شقته الخرساء المطلّة على البحر، والتي يسكنها منذ حوالي ثلاثين سنة وقت زواجه وفقاً لمذكراته. دكة النافذة تُشبه شرفة صغيرة مفتوحة على العالم. الحمامة دائماً في الجوار فيما يُشبه وجوداً أزلّياً، منذ يوم لم يعد يتذكره. لعله يتذكر وقتاً ألفت فيه وجودها، في البدايات، حينما كانت تحط على الدكة، ضخمة بلهاء. تهبط في ثقل بين زراير تتحرك في خفة وفواخيت رشيقة لا تنفك تدير رؤوسها إزاء أي نامة تصدر عن الشارع. وحدها تبدو في عالم آخر. عيناها الدائريتان الحمراءون بلون الياقوت، والنقطتان السوداءوان في مُتصفهما لا تُفصحان إلام

تنظر. هو يحبُّ النظرَ إليها. مختلفة لا تُشبه غيرها. رماديةٌ داكنة، تجلبُ الغمَّ لولا لطخة فيروزية تطوقُ عُقْفَهَا. تبدو غير مكترثةٍ لشيءٍ، تُمارِس وجودها من دون فهمٍ، مثله.

توقِظُه الشَّمْسُ كلَّ صباح. نافذته بلا ستارةٍ منذُ أسقطها التوأمان الصَّغيران في صبيحةٍ يحسبُها كلُّ يومٍ صبيحة أمس. يتذكَّر؛ سحب أحدَ الصَّغِيرين خيطها بقوةٍ على ما يبدو. انزعج في ذلك الصباح. صاحَ بهما. انتفضا. كانا يقفان والستارةُ ملقاة على الأرض بين أقدامهما. هو يقول هي. هي تقول هو. يتذكَّر الإصبعين الصَّغِيرين، يشيرُ كلاهما صوب الآخر يتهمه. يوغلُ الرَّجلُ في صورةٍ تُشبه الذِّكرى. يجلسُ أمام قماشِ الرِّسم يضربُ بريشته يرسمُ رتوشاً نهائية. يتدافعُ إليه الصَّغيران. الله! خلوةٌ بيضاء تختفي الصورةُ في رأسه وقتَ يهْمُ الصَّغيران بتقليبه. يحكُّ صلعتَهُ. متى كان ذلك؟ أمس. لا يهْمُ المهم أن تبقى هذه النافذة بلا ستارةٍ وفاءً للصَّغِيرين اللذين مهَّدَا للشَّمْسِ طريقاً إلى غرفته الباردة. هل كانت الحمامة هنا يوم سقطت الستارة؟ ربما، ولكن متى؟

يدعكُ عينيه بظاهرٍ كَفِيهِ. يتجاهلُ أسئلةَ يرميها النُّومُ على تخوم اليقظة. متى متى متى؟ يُزعجه كلُّ ما يُحيله إلى الزَّمن. هو لا يعرفُ من الزَّمنِ إلا الماضي، والماضي كله أمس. وهو لا يذكرُ من أمس إلا القليل؛ ولدتُ أمس. حطَّت الحمامةُ أمس. سقطت الستارةُ أمس. وفي اليوم ذاته، أمس، هاتَفَ طليقته فورَ استيقاظه: أَشْتاقُ للصَّغِيرين! تَقطعُ المكالمةُ فورَ تعرُّفِها صوتَه: اركُضْ يا جبان! يتشاءب. ينهضُ جالساً على سريره. يتناول هاتفَهُ يُجري اتصالاً.

لا أحد يُجيب. يضيق صدره. ينظرُ إلى النافذة بعينين نصف مُغمضتين نحو موضع الحمامة. فرصة ألا تكون هنا يُريح اللحاف عن جسده النحيل. يمضي مُسرِّعاً بمنامته الزمادية الدّاكنة إلى مطبخه الصّغير يجهّز قهوته. ترك الماء على النار. هرعَ مُسرِّعاً إلى خزانة في الممر يفتحها. تسقطُ بين قدميه جريدة قديمة مُصفّرة الأوراق. يُقرّبها إلى صدره مُغمَض العينين كأنما يُعاينها قبل أن يدسّها بين أشياءه في الخزانة. يُدخل كفه في كيس بلاستيكي. يُقرّب كفه إلى أنفه مبسوطة وعليها حباتٍ شعير. يُفلتُ عطسة. يتسّم. رائحةٌ والدي! هو يضطرب إذا ما فكّر في والده. يفتقده ولا يريد أن يلتقيه. هو يشتاقُ إلى أشياء كثيرة لا يدرِكها إلا بحضور ما لا يُحب، مثل الحُمى، تجلبُ كفاً حانية تلمسُ جبينه، تُدثّره بلحافٍ دافئ، وتحضّر له حساءً ساخناً يُحبّه. يتنبّه إلى حركةٍ في نافذته تقطع خيالاته. سعة النخلة تستأنف رقصاتها كلما هبّت ريح. يحثُّ خطاه مُسرِّعاً بكفّ مُطبّقةٍ على شعيرٍ نحو النافذة. يتحقّق من غياب الحمامة مخافة أن يُفرعها. نفحت وجهه ريحٌ باردة فورَ ما فتح نافذته العارية. تبدو النخلة أمام النافذة نظيفةً لامعةً رطبة السّعف. أتراها أمطرت أثناء نومي؟ التفتُ إلى البحر الممتدّ بزُرْقته إلى السماء أمامه. مياهُ المدّ عالية. أغمَض عينيه عن زُرْقَةِ تخيفه. استلّ نفْساً طويلاً يعبى داخِلَهُ رائحةٌ يُحبها، رائحة الدُّرُق اليابس، رائحة أمس. طأطأ، فتح عينيه ينظرُ إلى الدكّة الصّغيرة المُغبّرة. نثر ما في قبضته من حبوبٍ قُرب الدُّرُق المتكدّس وكومة أعوادٍ يابسةٍ وريشٍ وخيوطٍ وأسلاكٍ رفيعة. هذه الحمامة توشكُ أن تبيض! تهلّل وجهه ثمّ عبَس حينما رفع رأسه إلى البحر ثانية. رفع رأسه أكثر. سماؤه صَحْو.

هو يَمَقْتُ الأزرق. يَمَقْتُهُ بحرًا، يَمَقْتُهُ سماءً، ويمَقْتُهُ أبا. تُرْبِكُهُ الألوان في ذاكرته منذُ أصبحَ لكلِّ لونٍ حدثٌ يُلَازِمُهُ. وحدهُ الرَّماديُّ يُشْبِهُهُ، لونٌ لا لونَ له ولا ذاكرة. يُشْبِهُهُ تمثالًا صارَهُ يَراَدَتُهُ، لونُ النهايات، لونُ الدُّخانِ والرَّمادِ وحُطامِ البيوتِ والرُّفاةِ، لونُ العدم. يتذَكَّرُ عِرزال الكهلُ نفسَهُ صَغِيرًا. في الرَّابِعةِ أو الخَامِسةِ. يُدَاعِبُهُ أبوه يُلقِيهِ عَالِيًا. تَصْبِيحُ أَثَمِهِ خَشْيَةٌ أَنْ يَقَعَ. انتبه يا أَرْق.. سوفَ يَقَعُ الصَّغِيرُ! يَكِي الطفلُ فِرْعَا. يَصْرُخُ أَرْقُ غَاضِبًا. يَصْبِيحُ بِزَوْجَتِهِ؛ وَلَدَكَ جَبَانًا! يُمَسِكُ بِـ عِرزالِ الصَّغِيرِ ثَانِيَةً. يُلقِيهِ فِي الهَوَاءِ عَالِيًا غَيْرَ مَبَالٍ بِهِلَعِهِ. إِذَا بَكَيْتَ سَوفَ أَلْقِي بِكَ بَعِيدًا إِلَى السَّمَاءِ. زَمَّ الصَّغِيرُ شَفْتَيْهِ. لَمْ يَكِ، لَكِنَّهُ كَرَهُ السَّمَاءَ.

أَشَاحَ بِبَصَرِهِ عَنِ صَحْوِ سَمَائِهِ. أَطَبَقَ النَّافِذَةَ وَاسْتَدَارَ يَمْشِي عَلَى مَهْلٍ نَحْوَ مَقْعَدِهِ الْخَشْبِيِّ، يَواجهُ النَّافِذَةَ عَلَى مَبْعَدَةٍ بَضْعَةِ أَمْتَارٍ. لَا تَزَالُ رَائِحَةُ دَرْقِ الطُّيُورِ الَّتِي خَالَطَتْ غُبَارَ الدُّكَّةِ فِي أَنْفِهِ. أَخَذَتْهُ بَعِيدًا، بَعِيدًا جَدًّا إِلَى أَمْسٍ. يَصِيرُ لِلرَّائِحَةِ الْكَرِيبَةِ شَأْنٌ آخَرٌ إِذَا مَا أَخَذَتْكَ إِلَى زَمَنِ تُحِبُّ. هَزَّ رَأْسَهُ. لَيْسَ شَرْطًا أَنْ يَكُونَ جَمِيلًا زَمَنُكَ ذَاكَ، يَكْفِيكَ أَنْكَ كُنْتَ.

«انتظارُ ما يعود وما لا يعود»

كُنْتُ فِي الثَّامِنَةِ، أَطْوِي طَرَفَ ثَوْبِي حَوْلَ خَاصِرَتِي، أَجْلِسُ عَلَى سَحَّارَةٍ خَشْبِيَّةٍ فِي سَطْحِ الْبَيْتِ الْعَرَبِيِّ الْقَدِيمِ، سَطْحُنَا الْوَاسِعُ الرَّحْبُ. أَتَلَفْتُ بَيْنَ أَفْصَاصٍ كَبِيرَةٍ كَثِيرَةٍ. رَائِحَةُ الْأَرْضِ رَائِحَتُنَا؛ غُبَارٌ وَدَرْقُ طُيُورٍ وَشَعِيرٍ. أَتَابِعُ لَهْفَةَ وَالِدِي وَاضْطِرَابَهُ قَبْلَ الْغُرُوبِ. يَمَّمُ

وجهه صوب الجنوب ساهمًا، بحسب الوقت يتناهبه قلق. يتحرى عودة حماماته الست التي أطلقها عند الحدود الجنوبية فجرا. كانت الرِّيح شديدة في الصَّحراء صباح يومنا ذاك. وأنا، صغيرًا، أثقُ بعودة زواجِل والدي. لا تعني لي الرِّيح والمسافات شيئًا، ولا أحسب وقتًا لعودتها، لأنها حتمًا وإن تأخرت تعود. كلُّ من عاش في الدَّار يصير من أهلها؛ حمام الدَّار لا يغيب وأفعى الدَّار لا تخون، هذا ما قالته لي بصيرة قبل سنتين من يومنا ذاك، جدَّة والدي، أو رُبَّما جدَّة جدِّه، لا أدري فهي قديمة جدًا، أزليَّة، ساكنة في زاوية بهو البيت العربي القديم. ملتجئة سواذها، أسفل السُّلم. لماذا أسفل السُّلم؟ لم أسأل نفسي يومًا عن مواضع أشياء اعتدتها منذ مولدي، في بيتٍ عربيٍّ تطلُّ حُجراته الضيقة على بهوٍ داخلي غير مسقوف، بهو بصيرة التي لم أرها تفتح عينها يومًا، كأنما خيط جفناها برموشها منذ الأزل. كانت هناك أبدًا، مثل حمامة الدَّكة. بصيرة لا تترك مرتبتها الإسفنجية حتى لو اضطرت لقضاء حاجتها، تقضيها حيث تجلس من دون اكتراثٍ كأنها تعطس، تتأب أو تبصق. شأنها شأن أثاث البيت وأدواته، لم يتغير مكانها قط؛ الفراش في غرفة النوم، الموقد في المطبخ، أخباص الرُّز والعدس والشَّكر في غرفة الكيل، وسائد الجلوس الأرضية العريضة في البهو، وبصيرة، بشابها السوداء، تلتصق بفراشها الأرضي أسفل السُّلم كما لو أن ظهرها مدهونٌ بالغراء. لا أذكُّرها في غير موضعها الأثير، تُغطِّي نصف جسدها الشَّقلي بلحافٍ صوفيٍّ بُنيٍّ خشنٍ صيف شتاء. تُسند ظهرها إلى وسادةٍ سماوية الزُّرقة مهترئةً تتوسطها بقعة صفراء. كنتُ صغيرًا جدًا لم أفكر من تكون، لكن بعدما طرد والدي

كُلُّ الْعَبِيدِ الَّذِينَ كَانَ يَشْتَرِيهِمْ مِنَ الْبَيْتِ، وَبَقِيَتْ هِيَ، فَهَمَّتْ أَنْ بِصِيرَةَ
مِنْ أَهْلِ الدَّارِ.

بصيرة جامدةٌ على الدوام، ننسى وجودها أحياناً، يحسبها الرائي
مينَةً لولا صوتُ تُصْدِرُهُ بَيْنَ دَقِيقَةٍ وَأُخْرَى، كَأَنَّمَا تُنَبِّئُهُ إِلَى وَجُودِهَا،
حِينَمَا تَجْمَعُ مَخَاطِطَ صَدْرِهَا فِي حَنْجَرَتِهَا تَحْضِرُهَا لِبَصْقَةٍ تَصَوِّئُهَا فِي
قِصْعَةٍ خَزَفِيَّةٍ تَرْبِضُ عَلَى بَسَاطٍ حَصِيرٍ إِلَى جَوَارِهَا أَبَدًا. لَمْ تُخْطِئْ
هَدَفَهَا قَط. أَلْتَفَتْ إِلَيْهَا مَتَحَفِّزًا فِي كُلِّ مَرَّةٍ تُصْدِرُ فِيهَا حَشْرَجَةً
خُنْجَرَتِهَا قَبْلَمَا تَنْخُمُ بِلِغَمِ صَدْرِهَا. أَرْفَعُ غُرَّتِي الطَوِيلَةَ عَنْ عَيْنِي.
أُنْقَلُ بِصَرِي مُبْهِلًا بَيْنَ شَفَتَيْهَا وَالْقِصْعَةِ. خَخْخْ. أَضِيقُ عَيْنِي
أَمْعِنُ النَّظَرَ. تُحَرِّكُ فَكَّيْهَا مُبْرِطِمَةً مِثْلَ نَعْجَةٍ تَلُوكُ بِرَسِيمًا. تَف! تُلْصِقُ
بِصْقَتِهَا فِي مَتَنَصِفِ الْقِصْعَةِ. أُلَوِّحُ بِقَبْضَتِي كَأَنَّمَا أَحْرَزْتُ فَوْزًا عَلَى
صَحْبِي بِلَعْبَةِ الْكِرْيَاتِ الزَّجَاجِيَّةِ فِي سَكْنَتِهَا الثَّرَائِيَّةِ الْقَدِيمَةِ. أَبْتَسِمُ غَائِبًا
فِي مَلَامِحِ الْعَجُوزِ: مَاذَا لَوْ كُنْتُ مُبْصِرَةً؟

يَطَوِّفُنِي شَكِّي كَوْنِهَا كَافِيَةً. أَجْمَعُ أَقْلَامَ التَّلْوِينِ الْخَشْبِيَّةِ أَرْسُمُ
وَجُوهًا ضَاحِكَةً، أَقْرَبُ الْوَرَقَةَ أَمَامَ وَجْهِهَا، نَبْتَسِمُ رَغْمَ إِغْمَاضِهَا.
أَقْرَبُ وَرَقَةً جَدِيدَةً تَحْمِلُ وَجُوهًا مُكْفَهَرَةً، نَعْبَسُ بِوَجْهِهَا. أَخْبِرُ وَالِدِي
بِرَدِّ فِعْلِ الْعَجُوزِ. يُفْلِتُ ضَحْكَةً مِنْ أَنْفِهِ. سَوْفَ تَقْتُلُكَ أَوْهَامُكَ يَوْمًا!
عِرْزَالِ

تَمْلِمُ عِرْزَالُ الْكَهْلُ فِي جَلْسَتِهِ يَتَحَرَّى أَوْبَةً تِلْكَ الَّتِي شَغَلَتْهُ
بِحُضُورِهَا وَغِيَابِهَا. يَتَأَفَّفُ يَمُرُّ عَيْنِيهِ يُمَشِّطُ تَفَاصِيلَ غُرْفَتِهِ، كَأَنَّمَا
يَرَاهَا مَرَّةً أُولَى. يَطَاطَى يُنْظَرُ إِلَى خَشَبِ الْأَرْضِيَّةِ الدَّاكِنِ وَقِطْعَةٍ

السَّجَّادِ الحمراء المهترئة الوحيدة. يديرُ رأسه يسارًا نحو سريره
النحاسيِّ ولحافه الصوفيِّ البنيِّ القديم. يُديرُ جذعه ينظرُ إلى وراء
ظهره، يرى إفريزًا خشبيًّا في الجدارِ، يحيطُ كوةٌ كان لها بابٌ ذات
يوم. يتملّئ في الجدارِ الأبيض المصفرُّ عن يمينه؛ صورتان لتوأمة
توجعانه. يُغمضُ عينيه على وجهه، يفتحهما حمراوان لامعتان على
شقوق السَّقْفِ متنهِّداً. لو أنك تنطق! يهزُّ رأسه محدّقًا في دفترٍ مذكّراته
على الطاولة الصّغيرة قرب السرير.

«صوتٌ ما ليس له صوت»

كنتُ في السادسةِ يومَ لمحتُ أفعى صغيرةً، ثرابيّة اللون مُرقّطة،
تطلُّ برأسها من شقِّ الجدارِ في حوشِ الغنمِ في بيتنا القديم، تُخرجُ لي
لسانها المشطور كأنما تُزغرد من دون صوت. أثرتُ دُعرَ الدجاجاتِ
بضراخي. ركضتُ إلى بصيرة أندسُ تحت لحافها مُرتعدًا. طمأننتي
العجوزُ بجملَةٍ سمعتها للمرة الأولى؛ حمامُ الدَّارِ لا يغيب وأفعى
الدَّارِ لا تخون. انتفضتُ فرعًا يومَ سمعتُ الصَّوتَ مبحوحًا، كما لو
أنه صدى لصوتٍ لم أسمعه. حَبَوْتُ مُسرِعًا أبتعدُ عن فراشها وفزعني
يجاوزُ ما داهمني أمام أفعى الجدار. نظرتُ إليها من وراء كِيفي
مُبحلقًا. يُمّنه بصيرة! أدارت وجهها صوب القصعة الخزفية. خخخ
تف! لم يُصدّقني والذي حينما أخبرته. يا ولدا بصيرة عمياء صمّاء
خرساء. أمسكتُ بِكُمُ ثوبه أتوسّله أن ينتظر حتى يُنصت إليها بنفسه.
رحتُ أرجوها. يُمّنه بصيرة يُمّنه بصيرة! لم تُمهلني. صوّبتها في منتصف
وجهي. خخخ تف! فهقه والذي. احذر غدر الأفاعي يا جبان! واصل

ضجكته يرتقي السلم إلى السطح بتحري أوبة حماماته التي اعتاد أن يُطلقها بعيداً.

بقي هاجسي من ظهور الأفعى مرّة أخرى يُفزعني، رغم إيمان العجائز ببركتها، والتسليم بأن لكل بيت أفعاه الوفيّة، ورغم حكايات سمعتها عن أفعى دار هاجمت ليّصاً تسلّل إلى الدار خلسةً، وأخرى نهزّ سرير رضيع تُهدّده أثناء نوم أمّه.

أبي يُسمي هذه الأشياء خرافات، أما أنا فأصدّقها حيناً وأنكرها أحياناً.

عِرزال

ها هي فيروز وقد حطّت على دكّة نافذة غرفة نوم الكهل، تحمل عوداً في متقارها. اللطخة الفيروزيّة في عنقها تبدو أكثر توهجاً مع ارتفاع الشمس. هو يظنّ أنه بسبب لطختها تلك أسماها فيروز. بدا له الأمر غريباً أن يُسمي كائنًا لا يستطيع الاقتراب منه أو مناداته. منحتة التسمية شعوراً بالألفة يفتقده منذ أمس. ألقت فيروز عودها على دكّة النافذة. أخذت تلتقط البذور قبل أن تندو من عشّها غير مكتمل البناء، حملت عودها الجديد تدشّه بين الأعواد والأسلاك والرّيش والخيوط. استشعر عِرزال برداً ينسلّ إلى عظامه. ترك مقعده. جرّ خطواته ببطء نحو المشجب في الزاوية. مدّ يديه إلى شال فيروزيّ وعيناه على الحمامة مخافة أن تطير. ألقي الشال فوق كتفيه بحذر. ثبت دُبوساً في الشال أسفل عنقه بعد أن لفّه بإحكام. جلس على مقعده ثانية، يحاول ألا يُبعد عينيه عن الحمامة. يتابع مشيتها. حركة

عُنُقُهَا بَيْنَ تَطَاوُلٍ وَانْكَمَاشٍ. زُرْقَةُ السَّمَاءِ تَأْخُذُهُ بَعِيدًا عَنْ فَيْرُوزٍ إِلَى
أَمْسٍ. تَبًّا لَكَ يَا أَزْرَقُ مَاذَا تُرِيدُ! يَعْقِدُ حَاجِبِيهِ مُعَاوِدًا إِمْعَانَ نَظَرِهِ فِي
الطَائِرِ الزَّمَادِيِّ.

«انتظار أوبة الثلث»

من سطح البيت، لمخّ والدي نقطة سوداء في الأفق. خَفَقَ قلبي
إِزاءَ تحفُّزِهِ، يقف على أطراف أصابعه مشربب الثُّنُق. تركتُ السَّحَّارَةَ
الخشبية التي أجلس عليها. أسدلتُ الثُّوبَ على ساقِي بعدما فككتُ
رباط طرفه عن خاصرتي. سرتُ على مهل حافياً أترك آثار خطوي
على أرض السطح المغبرة. بمنحني نهشم الدُّرُق الجاف تحت قدمي
شعوراً أحبه. اقتربتُ من والدي أمسك جزءاً من ثوبه بيد، وبيدي
الأخرى أرفع عن عيني غُرَّتِي. نظر إليّ باسمًا، ثُمَّ عاودَ النظر إلى
النُّقْطَةِ السوداء يهزُّ رأسه: غادي. لفظ الاسم بصوته الغليظ. صوته
جليّ دائماً بعكس صوت بصيرة الهامس المبحوح. أومات برأسي
أوافق قوله. غادي؛ الأول والأسرع دائماً. رحتُ أعدُّ على أصابعي
الصغيرة. بقي سفار.. عواد.. رابحة.. وزينة ورخال. خطّ غادي
على سطح القفص الكبير يتفقد دارة، قفص الحمامة الأم. اقتربتُ
منه بحبور، أكوّر شفتي أحاكي هديله. غروووغ غروووغ. أمسك
والدي بوعاء الشعير يُمعن نظره جنوباً. ظهرت بعيداً ثلاث نقاط
سوداء. بدا والدي قلقاً وهو ينثر الشعير لـ غادي في حين ينظر إلى
الأفق وقت المغيب. نمتّم وهو يقف على أطراف أصابعه مشربب
الثُّنُق. سفار وعواد ورابحة. أنا لا أعرف كيف لوالدي أن يتعرّف

حماماته وهي كالثَّاماتِ في كَيْفِ السَّماءِ وقتَ الغروبِ. أنا أتعرفُها وقتَ نصيرُ قريَّةً بسببِ ألوانِ حُجُلِها التي تُطَوِّقُ قوائِمَها. هزَّ رأسه بأسف. لن يعودا. كنتُ أعرفُ أنه بقصدُ زينةٍ ورخَّال، الأخوانِ غيرِ الشَّقِيقينِ للحماماتِ العائدة. هي المرَّةُ الأولى التي يُفْلِتُهما فيها بعيداً عندِ الحدود. صغيران، رُبما أنهكهُما التعبُ والمطشُ وجنونِ الرِّيح. نزلتُ إلى البهو. مررتُ ببصيرةٍ في طريقِي إلى حوشِ العَنَم. كَزُرْتُ قولَ والدي. لن يعودا. هَمَسْتُ بصيرة. حمامُ الدَّارِ لا يغيب. فانتني أن أراها وقتَ نطقت. استندرتُ بسرعةٍ أنظرُ إليها بتوق. ماذا قلتُ؟ أجابتنني بصفةٍ في قِصَعَتِها. نف!

عرزال

ترك عرزال مقعده إلى المطبخ يتسلَّل مثل لص. سكب الماء الساخن فوق مسحوق القهوة. أحاط الكوب بكفِّه يستمدُّ دفئاً. أقفل إلى مقعده في غرفة النوم. لم يجد الحمامة على الدُّكَّة. طارت لتجمع مزيداً من العيدان قبل أويتها، حمامُ الدَّارِ لا يغيب. ارتشف قليلاً من قهوته قبل أن يضع كوبه على طاولةٍ صغيرةٍ إلى جواره. حدَّق في النافذة وتلالِ الدُّزْق على دَكَّتِها. كان يُزعجه فزعُ الطيورِ في نافذته وهربها كلُّما انتبهت إلى دخوله الغرفة. وكان يغضبُ كلُّما دفعها الخوفُ إلى الفرارِ بعيداً. حتى بُطء حركته وحذره لم يجدباً. صارَ يدخلُ غرفة نومِهِ بظهوره. جرَّبَ يوم أمس أن يلجِ الغرفة مُتفهقراً، مُتظاهراً بعدمِ انتباهِهِ إلى طيورِ الدُّكَّةِ وراءه. ينظرُ إلى الزُّرايرِ والفواخيت والحمامة في المرأةِ أمامه. الغريب أنها لم تهزُّ! تجفل

عند دخوله وحسب. تنكمش أعناقها. تترقب. توشك أن تطير لكنها لا تفعل. تكتفي بالنظر إلى ظهره متأهبة. يجلس إلى مقعده مُقابل المرأة، يُراقب حركة الطيور وراء ظهره. تنظر إليه بحذر قبل أن تطمئن إلى سهوه عنها. يستدير برفق. تتطاير فرعة فور ما تقع عيناه عليها. يصرخ. جبانة! وحدها الحمامة الرمادية فيروز صارت أقل حذرًا إذا ما التزم مكانه، فيما يُشبه اتفاقًا ضمنيًا، وراء المساحة بين النافذة والمقعد الخشبي.

«مُناوشة شكّ ليقين»

نهضت قبيل الشروق. زعبت من ماء بئرنا المجنونة أندوق قليله قبل الشرب. منحت البئر ماءً مالِحًا في ذلك اليوم، سوف يكون يومًا صعبًا، هكذا كنا نتلمّس طالع أيامنا نبوءة، إن جاء ماء البئر عذبًا استبشرنا خيرًا، وإن جاء مالِحًا عشنا يومنا في خوف. ركضت إلى الأعلى لعل زينة ورخال قد استدلا طريقًا إلى سطح الدار، دارهما. وجدت والدي وقد سبقني على غير دأبه. يقف بجسده الطويل يواجه الجنوب ساهمًا. لم يتب له لمجيئي. مررت نظري أعلى الأقفاص المفتوحة وداخلها. لا أثر. رفعت ثوبي أطوي طرفه أعقده حول خاصرتي. جلست فوق سحارتي الخشبية وراء والدي أرنو صوب الجنوب مثلما يفعل. أتحري نقطتين سوداوين في الأفق. لا حَمَام بين زراير خاطفة ويمام يمسح الأرض بنظره بحثًا عن فُتات. طال انتظارنا والدي في وقفته ثابت مثل نخلة، يُمشط السماء بنظره بين ظلمة ونور. ألم تقل إنهما لن يعودا؟

انتفض حينما قطعْتُ شروده بسؤالي. تنبَّه إليَّ أجلسُ وراءه. استدار يلتفتُ بوجهٍ لا يحملُ تعبيرًا. أشارَ بسبَّابته إلى رأسه. هذا يقول لن يعودا. هبطتُ سبَّابته إلى صدره. وهذا يقول رُبما. صمتُ واليدي قليلًا. تنهَّدَ قبل أن يُحدِّثَ نفسه. صغيران والمسافةُ طويلة والريحُ شديدة. رفعتُ ساقِيَّ أتربُّعُ فوق السَّحَّارَةِ الخشبيةِ أهَيَّ نفسي لجلسةٍ طويلة، أفكرُ في كلام والدي. سارَ نحو السَّلَمِ. صحَّحَ به. بصيرة نقول.. صاحَ يُقَاطِعُنِي. بصيرة لا تقول! هبطَ السَّلَمُ من دون أن يلتفت إليَّ. اختفى في الأسفل. جاء صوته مُرتفعًا. لا تنتظر، وحدهُ الزَّاحِلُ يعود، لم يكونا، لن يعودا!!

عِرْزَال

تأخرت فيروز في رحلتها. مدَّ عِرْزَالُ عُنُقَهُ يمسحُ ببصره دَكَّةَ النافذة، تُراها اختفت في الزاوية موضع ما سوف تُصَيِّرُهُ عُشًّا. لا شيء. انقبضَ صدره. أتراها عثرت على مكانٍ آخر تضعُ فيه بيضَتَيْها؟ حطَّ بُلبُلٌ على سَعْفَةِ النَّخْلَةِ. بدا مضطربًا كثير الالتفات. الطيورُ لا تُطيلُ البقاء على السَّعْفِ المزدحمِ بالخصوص المطواع للريِّح. الربيعُ على الأبواب، لو أنني أفتلحها وأضعُ مكانها سِدْرَةً قوية الأغصان تُغري الطيورَ بالبقاء مدَّةً أطول؟ تنهَّدَ يهزُّ رأسه. ولكن النَّخْلَةُ من أهل الدَّار. لا يزال الطَّيْرُ يتلَفَّتُ قلقًا فوق السَّعْفَةِ غير المتزنة، يفتحُ جناحيه ويُطبِقُهُما مُتردِّدًا يوشِكُ أن يُخلَق. عينا عِرْزَال تخونانه تنظران إلى السَّمَاء. تهبطان إلى البحر. يُمرَّرُ ظهرُ إبهاميه أسفلَ عينيه يمسحُ دمعا. يسمعُ صوتَ البُلْبُلِ هامِسًا. عِرْزَال! حَمَامُ الدَّارِ لا يغيب! يلتفتُ إلى

طير السَّعْفَةِ بسرعة. لا يجده في الجوار. يحكُّ صلته مستغربًا. تذكر
عِرزال فيروز التي طال غيابها. أثرها تاهت في السماء؟ هل ابتلعها
الزُّرْقَةُ هي الأخرى؟ ما كاد يُنهي تساؤله حتى ظهرت تحمِلُ ورقة
شجرٍ يابسة، تصفِّقُ جناحيها هبوطًا إلى موضعها. دشت مِنقارها بين
الأعوادِ تُسوي عُشَّها قبل أن تطير ثانية.

«مِنَحَةُ الْعَقْلِ وَمِحْنَتُهُ»

لم أفهم. لماذا أطلق والدي رَحَالَ وزينة جنوبًا عند الحدود
وهما ليسا مثل البقية، لماذا انتظر عودتهما ما لم يكونا؟! بقيتُ
مُترَبِّعًا على سَحَّارَتِي الخشبية أنتظر، حائرًا بين الاثنين؛ أؤمنُ بما
يقوله والدي وأرفضه، أكفُرُ بما تقوله بصيرة وأرغبه. هبطتُ السَّلَمَ
بعد ارتفاع الشمس. أفرغتُ قِصْعَةَ بصيرة من بُصَاقِهَا. أعدتها نظيفةً
إلى مكانها الدائم وأنا أنظرُ إلى المعجوز. جلستُ على الأرض فوق
بساط الحصير إلى جانبها. رحتُ أسمعُهَا وأنا أحدثُ نفسي. أزدق
يقول وحده الزَّاحِلُ يعود، وأنا أقول كما قالت بصيرة حمام الدَّار
لا يغيب. كنتُ أبخلُّ في ثغرها لعلِّي أحظى برؤية حركة شفيتها
وهي تنطق. سمعتُ المعجوز. تحسَّرجَ الصَّوْتُ في حنجرتها. راحت
تستجمع بلغمها، تُقَلِّبُهُ في فيها. مددتُ ساقِي. أزحتُ بِقَدَمِي القِصْعَةَ
الخزفية أبعدُهَا عن موضعها الدائم بضعة أشبار. نقلتُ بصري بين
شفتي المعجوز وقصعتها. خخخ. تف. لم أستغرب حينما استقرَّت
بصفة بصيرة في قُعرِ القِصْعَةِ!

عِرزال

نهضَ تارِكًا مقعدَهُ، يَجُرُّ خُطَاهُ إِلَى حَمَامِهِ الْمُؤْجَلِ بَعْدَ مُرَاقَبَةِ
 فيروز وشربِ قهوته الصَّبَاحِيَّةِ. حَمَامُهُ لَا بَابَ لَهُ. هُوَ يَكْرَهُ الْأَبْوَابَ
 الْمُوصَدَّةَ. يَخَافُ مَا تُصَوِّرُهُ مُخَيَّلَتُهُ وَرَاءَهَا. أَفْكُهَا، أَزِيلُهَا يَزُولُ مَا
 وَرَاءَهَا! هَذَا مَا قَرَّرَهُ أَمْسَ. لَا بَابَ فِي مَسْكَنِ سَوَى بَابِ الشُّقَّةِ
 الرَّئِيسِ. تَجَاوَزَ عَتَبَةَ الْحَمَامِ دُخُولًا. وَقَفَ أَمَامَ الْمِرَاقَةِ يُحَدِّقُ فِي
 وَجْهِهِ. كَانَ رَمَادِيًّا مِثْلَ مَنَامِيهِ. جَفَنَاهُ مَرْتَخِيَانِ عَلَى عَيْنِيهِ الشَّهْلَاوِينَ.
 انْتَزَعَ دُبُوسَ شَالِيهِ الْفِيروزي. أَرَخَى الشَّالَ. مَرَّرَ ظَاهِرَ كَفِّهِ عَلَى ذَقْنِهِ.
 تَحَسَّنَ شَعْرُهُ الْأَشْيَبَ النَّابِتَ. غَرِيبُ! كُنْتُ صَغِيرًا يَوْمَ أَمْسَ! غَارَ
 رَأْسُهُ بَيْنَ كَتْفَيْهِ. قَطَّبَ حَاجِبَيْهِ. أَلْصَقَ فَكَّهُ السُّفْلِي بِرَقَبَتِهِ وَنَفَخَ صَدْرَهُ:
 غرووووغ غرووووغ.



صباحِ ثانِ

35

«... أَخَذَ يَلْوُحُ بِيَدَيْهِ. بِصَبْحُ بِهِمَا: رَحَال.. زِينة! ثُمَّ أَطْبَقَ أَسْنَانَهُ عَلَى طَرَفِ ثَوْبِهِ وَرَاحَ يَرْكُضُ كَالْمَجْنُونِ!».

كَوَّرَ جَسَدَهُ تَحْتَ لِحَافِهِ. مَنَامَتُهُ الرَّمَادِيَّةُ تَلْتَصِقُ بِجَسَدِهِ الْمَتَعَرِّقِ. أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ بِشِدَّةٍ يَتَظَاهَرُ بِالنُّومِ. هُوَ لَا يَرِيدُ لِهَذَا الْكَابُوسِ أَنْ يَنْتَهِيَ. هَذَا شَيْءٌ يُشْبِهُ الْإِتْرَازَا! أَنْ يَصِيرَ لِقَاؤُكَ بِمَنْ تُحِبُّ فِي إِطَارِ كَابُوسٍ؛ يَعْنِي أَنْ تَعْقِدَ صَدَاقَةً مَعَ كَوَايِيْسِكْ بِصِفَتِهَا أَحْلَامًا. نَظَرَ إِلَى النَّافِذَةِ. فَيُرَوِّزُ رَابِضَةً فِي زَاوِيَةِ الدَّكَّةِ. مَدَّ يَدَهُ إِلَى الطَّائِلَةِ الصَّغِيرَةِ قُرْبَ سَرِيرِهِ. تَنَاوَلَ هَاتِفَهُ فِيمَا يُشْبِهُ فَرَضًا صَبَاحِيًّا مِنْذُ... مِنْذُ أَمْسٍ. أَلْصَقَ السَّمَاعَةَ بِأُذُنِهِ. أَشْتَاقُ لِلصَّغِيرَيْنِ. طَلِيقَتُهُ لَا تَرِيدُ أَنْ تَنْسَى. أَرْكُضُ يَا جَبَان! ثُمَّ أَقْفَلْتُ الْخَطَّ. رَكَضَ عِرْزَالٍ إِلَى الْمَطْبَخِ يَغْلِي الْمَاءَ.

«فَاقِدُ الشَّيْءِ، قَدْ يُعْطِيهِ»

أَوْشَكَتِ الشَّمْسُ عَلَى الْمَغِيبِ. السَّمَاءُ تَشْوِيهَا حُمْرَةٌ كَثِيَّةٌ، وَأَنَا لَا أَزَالُ أَنْتَظِرُ فَوْقَ سَحَّارَتِي الْخَشْبِيَّةِ. تَمَلَّمْتُ فِي جِلْسَتِي وَالسَّمَاءُ خَالِيَةٌ إِلَّا مِنْ نَتْفِ غَيُومٍ. نَهَضْتُ أَنْفَضُ الْغُبَارَ عَنْ ثَوْبِي. مَشَيْتُ نَحْوَ قَفْصِ الْغَائِبِينَ أَدَشُ كَفِّي فِي جَيْبِ الثَّوْبِ. الْحَمَامَةُ الْأُمُّ، دَاخِلُ سَحَّارَةِ خَشْبِيَّةِ غَطَاهَا الذَّرْقُ، تَرَقَّدُ عَلَى فَرْخَيْنِ جَدِيدَيْنِ تَنْظُرُ إِلَيَّ بِاحْتِرَاسٍ وَغَضَبٍ لِأَنِّي تَخَلَّيْتُ عَنْ صَغِيرَيْهَا فِي نِيَةِ الصَّحَرَاءِ. مَسْكِينَةُ الْحَمَامَةُ

الأم، كأنما خُلِقَتْ من أجل أن تفرخَ طيورًا نغيب، وتعودُ بشرط غياب.
مددتُ ذراعي أنوي أن أمسح بكفِّي الصَّغيرة على ظهرها أعزَّيها.
غاصت رقبَتها في صدرها نهْدَلُ مُغْتَاطة. غرووووغ. كدتُ ألاْمِسُ
ظهرها لولا أن عاجلتني تضربُ كفِّي بجناحها. كفِّي قريبة ما زالت.
أناورُها. زعلانة؟ عاجلتني بضربةٍ أخرى أشد. سحبْتُ ذراعي. لا
بأس. أمْثا بصيرة تقول حمام الدَّار لا يغيب. ظَلَّت الحمامة تُراقِبُ
كفِّي العائدة إلى داخل جَيْبي. ابتسمْتُ لها وقد هدأ خوفُها. حتى أنتِ
تُصدِّقين أمْثا بصيرة. غرووووغ.

عرزال

دخل عُرفته بظهره حذِرًا. اقترب من النافذة متجاوزًا حدود اتفاقٍ
ضميني مع فيروز. استدَار ببطءٍ يواجه النافذة. انتفضت الحمامة. مَشَتْ
إلى حافة الدُّكَّة كاشِفةً عن بيضتين في وسط العُش. أطلقت جناحيها
للزَّيْح. جحظت عيناه وهو يُحدِّقُ في العُش. أسندَ كفَّيه إلى رأسه
فاغْرًا فَمَهُ على اتساعه. طيري يا جبانة! عيناه على العُش ما زالت.
كيف لها أن تترك بيضتيها على هذا النحو؟ كزَّ على أسنانه غيظًا. فتحَ
النافذة غير مصدِّق. نفحته رِيحٌ باردة. أجفل. سوف تتجمد البيضتان!
قطعَ الغرفة جيئةً وذهابًا يقضمُ أظفاره. حمامةٌ غبية جبانة! ينظرُ إلى
النافذة وهو يرْكُن في إحدى زوايا الغرفة. البيضتان في عُشهما من دون
فيروز. ضرب الأرض بقدميه مثل طفلٍ حائِقٍ يتمسِّكُ بشيءٍ يوشك أن
يفقده. فيروز غير جديرة بكما! صرخ. تعالي، تعالي أرجوك من أجل..
من أجل الـ...! وقفت على أطراف أصابعه ينظرُ إلى البيضتين. على

وجهه شبَّخ ابتسامه كأنه توصل إلى شيء ما داخل رأسه. حثَّ خطوه إلى دكة النافذة. حمل البيضتين في كفه المرتعشة. دفء فيروز على قشرتهما لا يزال. حدَّق فيهما كأن بياض القشرة يشفَّ عما بداخلهما. كائنان في وضع جنيني وديعانٍ مُطمئنان. عرزال على وشك البكاء؛ لمعان عينيه، رعشة شفته السفلى واختلاج منخریه. راح يجوب غرفته يحدث نفسه. كفه مبسوطة تحت البيضتين. زينة ورخال! نعم، أنثما زينة ورخال! كان يحلم بمثل هذه اللحظة منذ أمسٍ طويل. هزَّ رأسه بضحك. حمام الدار لا يغيب.

«زرقه تفتح أبوابها على موعدٍ مستحيل»

أندكرُ والدي مُنحنيًا على قفص حماماته الست في الصحراء العارية قُرب الحدود، قفص نصف كرويّ دقيق الأسلاك. كانت الريح شديدة تصفعُ أذني وتبعدُ عُرْتي عن جيني. يفتح والدي باب القفص ويهشُّ على حماماته. تطير الحمامات تباعا. أنصتُ إلى صفق أجنحتها مع هجيج الريح. أنظرُ إليها واثقا في عودتها إلى سطح البيت، رغم الريح الهائجة. راحت الحمامات تحوم في سمائنا الزرقاء قبل أن تُحدِّد وجهتها شمالا صوب المدينة. حلَّق غادي أولا، تبعه أشقاؤه سفار ثم عواد ورايحة بسرعة، في حين حطَّ الفرخان غير الشقيقين رخال وزينة على الأرض، أعرفهما من صغر حجميهما ولوني ججليهما. لـ رخال ججل سماوي الزرقه ولـ زينة ججل وردي. ارتبكت لرؤيتهما على ذلك النحو، مُرتبكان يقتربان من القفص بلوذان به. صفق والدي. فتح ذراعيه يُفرَّعهما يحثُّهما على اللحاق بالبقية. غيرا وجهتهما يسيران

بتعثرٍ إليَّ عوضًا عن القفص. أقميتُ مثلَهفًا فاتِحًا ذراعيَّ للحمامتين. شيء من قلق انتابني. بوَدِّي أن أعانقهما. ضرب والدي الأرض بقدميه وهو يصبح. نملَكهُما الذُّعر. غَيَّرا وجهتُهُما ثانيةً. يُحلِّقان على ارتفاعٍ منخفضٍ ويحطَّان على الأرض. زينة ورَّحال يعرفان ما ينتظرنا في السَّماء. هرع والدي وراءهما. يُصَفِّقُ بقوةٍ ثُمَّ يَدُسُّ إصبعين أسفل لِسَانِهِ وَيُصَفِّرُ. هزبا إلى السَّماء بحومان فوقنا قبل أن يطيرا في اتجاه المدينة أخيرًا. مكثتُ أنظر إليهما يُخَيِّلُ لي أنهما يلتفتان وراءهما، ينظران إليَّ أثناء تحليقهما. أرسلتُ نظري وراءهما إلى أن ابتلعتُهُما الزُّرقة. كنتُ أُرَدِّدُ في سِرِّي اسميهما، وأنا الذي أطلقتُ عليهما الاسمين في اليوم الرابع من خروجهما من بيضتَيْهما؛ زينة ورَّحال.

عرزال

تَبَّه إلى البيضتين في كَفِّهِ وقد فقدَا دِفءَ فيروز. ارتبك. أطبق كَفِّهِ عليهما برفق. قَرَّبَ كَفِّهِ إلى شفثيه وأخذ ينفُخُ ببطء. عبث! أعادهُما إلى العُشِّ وأطبق زجاج النافذة. ظلَّ ينظرُ بعيدًا يبحث عن حمامته الجبانة. لعلَّها المرأة الأولى التي تبيضُ فيها! حمامة غبية! هي لا تعرف ما في داخل البيضتين، لو أنها تدري لصفعت كَفِّي إذا ما مددتُها نحوها عوضًا عن الهرب! البحرُ أمامه على مدِّ البصر، عالي الموج، لأول مرةٍ منذُ أمسه لا يُبعد نظره عن البحر. يُحدِّق في أواجه بعينين حمراوين ناضحتين بالكراهية.

يغيب في ذكرى بدت بعيدة، ليست أكيدة. كان بسرِّ واليه الأبيض الداخلي يقطر ماءً، محمولًا بين ذراعي والديه، وأُمُّه تصرُخ

على رمال السَّاحِل، بعد أن خاض أزرق في الماء موغلاً في العمق حتى كَتَفَيْهِ. همس بأذن الصَّغير. جرَّب الغرق مرَّةً، تتعلم السَّباحة. جرَّب الغرق مرَّات. ابتلع ماءً كثيرًا. أوشك أن يبكي. إذا بكيت سوف أتركك للغرق! ظلَّ يضرب الماء بكَفَيْهِ. يُحرِّك ساقيه في كلِّ اتجاه. يقترب من أبيه يمدُّ له ذراعيه. ينشئ به يحوِّط عنقه. يدفعه أبوه بعيدًا عنه يُخَيِّره بين أن يموت غرقًا أو أن يصير رجلًا يُجيد السَّباحة. املاً رثيك بالهواء حتى تطفو... اسبح يا ولد ولا تيك، اسبح! لم يسبح. لم يُتقن السَّباحة قط. لم ييك، لكنه كرة البحر.

أشاح بوجهه عن البحر هربًا من ذاكرته الزرقاء. حدَّق في البيضتين الباردتين يتناهي قلُق. ابتعد عن النافذة بضع خطوات إلى الوراء. كيف يتحاشى الأزرق؟ كيف يتجنَّب مواجهة فيروز، يُقي الجبانة على دَكَّة النافذة، يختفي عنها ويكسب ثقتها إلى حين تفقس بيضتها؟ رفع رأسه إلى أعلى الجدار. لو أن للنافذة ستارة؟ كان لهذه النافذة ستارة! أجهش.

«تَحَالُفُ الْأَضْدَادِ ضِدَّ قَلِيلِ حِيلَةٍ»

بلَّلت دموعي اللِّحافَ فوق ساقِي بصيرة. لم يعودا! كنتُ مُغْمُوضَ العينين لعلَّها تنطق، تُطمئنني أنهما لن يطبلا الغياب. مسحتُ على شعري. رفعتُ رأسي أنظرُ إليها. ملامحها هدوء وسلام. وجهها إلى سقفها؛ باطن السُّلَم الذي يعلو عن رأسها مسافة ذراعين، تبدو في عالمٍ آخر. صرتُ أنظرُ إلى سقف بصيرة، يبدو قريبًا بعيدًا. يُمه بصيرة! خخخ. ضغطتُ على ساقها لعلَّها تنطق. قولي شيئًا! أدارت رأسها.

تف! رفعت وجهها ثانيةً إلى الأعلى حيث باطن السُّلَم. أمسكت بِكُم
توبها أصرخ. يُمّ بصيرة! مرّ بنا والذي يجرّهُ صُراخي. صاح بي. يا
ولدا انحنى إلى العجوز. راح يُصَفِّقُ بِكَفَّيْهِ صفقاتٍ متتالية عند أذُنِها.
يدش إصبعيه تحت لسانه يُصَفِّر. لم يهتزّ للعجوز جفن. عمياء صمّاء
خرساء! قال لي ثم أشار إلى رأسه. يا صبي! لا عقل لك؟! نهضتُ
أركضُ إلى السَّطح. أدركتُ آخر السُّلَم حين جاءني صوتُ والذي.
ابك يا ولدا ابك وانتظر ما لن يعود! بكيت... بكيتُ غياب زينة ورخال،
وصمت بصيرة، وقسوة والذي.

عِرزال

خرج من نوبة نشيجه. نظر ناحية النافذة. لن أضع ستارة على
هذه النافذة. على فيروز أن تتخلّى عن جُنيها، وعلى هذا الأزرق أن
يفهم! انتبه إلى وجود فيروز متكوّرة على بيضتيها. قطع المسافة بين
سريره والمقعد الخشبي يحبو مثل فهد بين أحراش يتخفّى عن فريسة.
جلس على مقعده مُتسمّراً. أطرافه باردة مرتعشة. شالهُ الفيروزي على
المشجب في الزاوية غير بعيد. الماء الساخن جاهز في مطبخه. خشي
أن يُخيف الحمامة إذا نهض إلى حيث شالهُ أو إذا سار إلى المطبخ.
سحب كَفَّيْهِ إلى داخل كُمَيّ منامته الرّمادية. قرَّبهما إلى فيه وصار
ينفخ. قوَسَ ظهره وضمَّ ساعديه إلى صدره يُمعِنُ النظر في فيروز.
يتسمّم في حين يصطكُ فكَاه من البرد. فيروز ليست جبانة. فيروز
تُحبُّ صغيريها. غرووغ. هزّ رأسه ضاحكاً من دون صوت. ضحكته
لم تستمر طويلاً حينما تنبّه إلى زُرقة ما وراء النافذة. يُقَطِّبُ حاجبيه.

يتذكّر. طَوْفَهُ أبوه بذِراعِهِ يسحبُهُ نحو السَّاحِلِ مثل خرقَةٍ بالِيَةِ مُبْتَلَّةٍ.
على الرَّمْلِ في شِبْهِ إغْمَاءَةٍ. انحنَت أُم عِرْزَالِ على صَغِيرِهَا تَلْفُهُ
بمنشفَةٍ وهي تَبْكِي. استفرغَ الماءَ المالحَ على جسدِهِ. الماءُ المالحُ
حليْفُ الشَّوْمِ كما كانت تُخبرُهُم بنزُهُم المَجْنُونَةِ في البيتِ القديمِ.
هل أخبرْتُهُم بذلكَ حقًّا؟! فتحَ عَيْنِيهِ. تنفَّسَ بعمقٍ. رأى والدهَ غيرَ
بعيدٍ يُشْعِلُ لُفَافَةً تَبغ، يَهْزُ رأسَهُ، وينظُرُ إليه بحسرةٍ: جِبان! أنا لا أنجب
الجبنة.

مضت ساعاتٍ قضاها عِرْزَالِ على مقعدهِ الخشبي يُقَابِلُ النافِذَةِ.
أشبهُ بتمثالٍ، لولا رَعِشَةُ جسدِهِ. وحده الظلامُ يَمْنَحُكُ أمانًا في ظرفِكَ
هذا. لن أتحركَ قبلَ مغيبِ الشَّمْسِ، حينها لن تشعري بحركتي يا
جبانة. فيروز أيضًا لم تتحرك. راقِدةٌ على بيضتَيْها تنظُرُ بعيدًا في الأفق
كمن ينحرى عودةً غائب.

«افعى الدَّارِ لا تخون»

كنتُ أَجْلِسُ على الأرضِ في القفصِ الكبيرِ. قفصُ الحمامِ
الأم. أتنشَّئُ رائحةَ الغُبارِ والذَّرْقِ اليابسِ. أضْمُ ساقَيَّ إلى صدري
وأنظُرُ إلى الفرخينِ شَقِيقَيَّ زينةَ ورخالٍ في عُشِّهما داخلِ السَّحارةِ.
كِلَاهُمَا في حجمِ إصبعٍ. مُطَبَّقَةٌ أجفانهما مثلَ بصيرةٍ. يرتعشان في
غِيَابِ أَقْهَمَا التي خرجت من القفصِ، وحطَّت تلتقطُ شعيرًا ألقاهُ
والدي على أرضِ السَّطْحِ. هل يُعوِّضُ حضورُ البعضِ غِيَابَ بعضِ
آخر؟ لن أُسميهما زينةَ ورخالٍ لأنَّ صاحِبَيَّ الاسمينِ سوف يعودان.
بهتٌ حينما ظهرَ رأسُ الأفعى ثُرَابِيَّةَ اللونِ المُرقَّطَةِ في شَقٍّ صَغِيرٍ في

جدار زاوية القفص. ضمنت ساقِيَّ إلى صدري أكثر أطوَقَهُمَا بذراعيَّ بشدَّة. أراقبُ الأفعى الصَّغيرة أخفي فزعي. بوَدِّي لو أنادي والذي الذي لا يؤمن بوجود أفاع في البيت ليرى بعينه. ابتلعتُ لِساني. قطَّبْتُ حاجبيَّ بشدَّة أهرُّ رأسي كأنما أحاولُ إنزال عُزَّتِي على عينيَّ أكثر كي لا أرى. أخرجتُ الأفعى لسانها المشطور. خرجت من شِقِّ الجدار تنسلُّ بنعومة بسِقِّها لِسَانُهَا كأنه عصا الأعمى يتحنَّس مسلكها. تسلَّلتُ إلى السَّحارة الخشبية التي يتوسَّطها العُش. تسارع نبضي وانتفض جسدي. قطعتُ أفعى الجدارِ طريقها مرورًا بين الفرخين المرتعشين. اختفى ذيلها وقت ظهر رأسها من الجانب الآخر للسَّحارة. مضت تزحف بنعومة مُخَلَّفَةً بيت الصَّغيرين وراءها. اختفت في شِقِّ الجدار المقابل. نهضتُ أدعكُ عينيَّ وأنا أحدِّقُ في موضع اختفاء الأفعى. أنقلُ بصري بين شِقِّ الجدار والعُش وشِقِّ الجدار المقابل. تأكدتُ من سلامة الصَّغيرين. رحتُ أركض خارج القفص. انتصبْتُ أرنو بعيداً نحو الجنوب مُتَبَسِّمًا. كانت الشَّمْسُ قد دنت للغروب. ما دامت أفعى الدَّارِ لا نخون، فإن حمام الدَّار..

عرزال

يغيَّبُ النُّور وراء نافذته. تتوارى الشَّمْسُ في مغربها. إنارة عُرفته مُطفأة. فيروز لم تأكل شيئاً منذ ساعات. تسلَّل في خِفةٍ إلى الخزانة في الممر. حمل في قبضته حفنة بذور. لفَّ الشَّالُ الفيروزي حول عُقْبِهِ ثم مضى في ظلمة المكان نحو الحمامة حذراً. تجاوز المسافة المعتادة، اقترب إلى النافذة أكثر. لم تنتبه له فيروز وقد اختفى في

الغرفة غير المضاءة يتلعه الظلام. فتح النافذة بحذر. لم تتحرك.
 اكتفت تسحب رأسها إلى صدرها مترقبة. ضيق عينيه من شدة برد
 نفخ وجهه. غاصت رقبته في شاله الصوفي مترقبا. أصدرت هديلها
 مرتابة. اتسعت عيناه. حاكاهما: غروووغ. مرر قبضته المرتعشة ببطء.
 فزعث. طارت فيروز من دون أن تصفعه بجناحها كما تمنى. حال
 غروب الشمس دون ابتعادها. لاذت بسعفة النخلة المضطربة. نشر
 البذور في الهواء غاضبا. ضرب الدكة بقبضتيه. طيري يا جبانة!
 أخذ يخلق فيما وراء النافذة. لم تعد الزرقة تُلَوّن البحر والسماء
 بعد غياب الشمس. كأنه يتبّه للأمر أول مرة. يُمكنني أن أتصالح مع
 السماء والبحر على حالهما هذه! أطبق النافذة وأقفل نحو الحمام.
 سوف تعود. يجب أن تعود. وسوف تفسد البيضان، وساعتها لن
 تتخلى عنهما أبدا. أفزع منظره في مرآة الحمام. وجهه باهت بين
 رمادي وأزرق. إنه البرد! أوجد لنفسه تبريرا. ألصق ذراعيه إلى جسده
 فيما يشبه وقفة عسكرية. نفخ صدره. غروووغ.

* * *

لتحميل المزيد من الكتب الحصرية والرائعة
زوروا موقع جديد بدف

www.jadidpdf.com

www.jadidpdf.com



صباحٌ ثالث

47

«... ابتلعتُهُما الزُّرْقَة. لم يعد يراها. أخذ يُلوِّحُ بيديه. يصبح بهما: رَحَال.. زينة! ثم أطبق أسنانه على طرفِ ثوبه وراح يركضُ كالمجنون!».

هذا الكابوس الأزرق يجيء بتفاصيل جديدة يوماً تلو آخر! طال مكوثه في السرير، مُغمض العينين يسترجع صوراً ومضت في منامه، لعله يخدع نومه يستدرج كابوسه يُبقيه مُدَّة أطول. لكنه شأن كل شيء ليس لنا يدٌ في حدوثه أو تجنبه! أحداث يقرؤها مجهولٌ في نومنا وحوادث تصنعها الصدفة في يقظتنا، وكلُّها أشياء بلا معنى. تنهد عِرزال وقد فقدَ أمله في ساعة نومٍ إضافية. قِبتُ بك يا كابوس وما قِبتُ بي! التقطَ الهاتف وجفناه مُطبقان على حالهما منذ استيقاظه. ابهامه يتنقل بين الأرقام بحركة تلقائية. هو لا يدري أنه نسي الرقم، لو سُئل يوماً عن رقم طليقته فإنه سيلوذ بالصمت. هو يتصل كل صباح منذ أمس وفق ذاكرة أصبعه التي تحفظ موضع الأرقام في مفاتيح الهاتف. انتظر المجيب في الناحية الأخرى. لا مُجيب. لم يابه كثيراً بعدم الرد على غير عادة. اعتدل جالساً على السرير. يُميل رأسه يميناً ويساراً، يلامس كتفيه بأذنيه، يُطقطق عظام رقبته. فتح عينيه ببطء على زُرقة النافذة. لم يعد اللون مزيجاً مثل أمس: ما دامت فيروز رابضة في الجوار. تنهد وهو يشاهد حمامته الأثيرة تحسّر منقارها

في منقار أحد الفرخين، لعلهُ رَحَّال الصَّغِير في حياةٍ جديدة، كأن
أُمَّهُ تُجَبِّزُهُ على الأكل. جسدُ فيروز يهتزُّ بعُنف تبذُلُ كلَّ ما في وسعِها
لتودِغِ سائِلِ جوفِها في جوفِ الصَّغِير. الفرخُ يُحرِّكُ جناحيه الورديين
العاريين، إلا من زغبٍ أصفر، كأنما يَنازِعُ ويلفُظُ أنفاسه مُستفْرِغًا
روحه. نقلَ عِرزالِ نظرةً إلى الفرخِ الآخر، لعلَّها زينة! يُحدِّقُ فيه وقت
ينتظرُ الفرخُ الجائع من أُمِّه التفاتة. رأسُهُ إلى الأعلى مُطَبِّقُ الجَفْنَيْنِ
صامتٌ مُتَاهِبٌ بلا حراك.

«اتَّكأَ رجاءٌ على صُدْفَةٍ»

لا شيء في السَّقْفِ يُبَرِّزُ التفاتَ بصيرةٍ إليه طيلة الوقت. سقفُ
بصيرة، باطنُ السَّلَمِ القريب من رأسِها، عتيقٌ نقشَرُ دِهَانُهُ منذُ ما لا
أدري، أحوالَ الزمنِ بياضُهُ صُفْرَةٌ ضاربةٌ إلى البُني، يَنبِثُ بينه الرَّماديُّ
كاشِفًا عنه تساقطَ قشورِ الدَّهَانِ القديم. أحدُ شقوقِ السَّقْفِ يُشَبِّهُ الفم.
لو أنه يَنطِقُ! شقٌّ آخر يُشَبِّهُ العين. أتراه يرى؟ يُخَيِّلُ لي أن لا أحد
يعرفُ العجوزَ بقدرِ ما يعرفُها باطنُ السَّلَمِ، أو أن بصيرة لا تعرفُ
شيئًا في الحياة غير ما يهَمُّسُ به إليها سقفُها الواطئ. من أين لها يقينها
بعودةِ حمامِ الدَّارِ ووفاء أفعالِها؟! يُمَتِّعُ بصيرة! إذا كُنْتَ تسمعي
إبصقي في القنطرة أرجوكِ. وجهها إلى أعلى لا يتحرَّكُ فيها شيء إلا
ارتفاع صدرها وانخفاضه تشهُقٌ وتزفُّ بانتظام. نَشِبُكُ أصابع كَفِّها
المستندتين إلى حِجْرِها. أنني ساقِيّ تحتي، أربح كَفِّي على رُكْبَتِي
كما لو كنتُ في صلاة. أنظرُ في وجه العجوزِ أتحرَّى دلالةً تَسِفُّ
يقينَ والدي. دَسَسْتُ كَفِّي أسفلَ لحافِها الصُّوفِي أدلِّكُ ساقِها. إذن..

إِذْنُ لَوْ كُنْتَ حَقًّا لَا تَسْمَعِينِي، إِذَا كُنْتَ كَمَا يَدْعِي أَبِي؛ عَمِيَاءُ صَمَاءَ
خَرَسَاءَ، أَرْجُوكَ يَمُّهُ بَصِيرَةً ابْصُرِي فِي الْقَصَصِ... لَمْ تُمَهِّلْنِي بِصِيرَةٍ
أَنْهِيَ جَمَلَنِي. خَخْخَفْ! طَاطَاطُ فِي خِيَةِ وَأَنَا أَحْمِلُ قَضْعَةَ بَصَاقِيهَا
إِلَى رُكْنِ الْأَوَانِي أَغْسِلُهُ.

عرزال

لا يرى فيروز. اشرباً عُثْقَه، يُطالِعُ النَّافِذَةَ، يتأكَّد من غياب الحمامةِ الأمِّ. أزاحَ لحافه عن منتصف جسده. حثَّ خطوهُ نحو الصَّغِيرين. أسندَ كَفَّهُ إلى زجاج النَّافِذَةِ ينظرُ إليهما. سرت في ذراعِهِ رعشةٌ استقرت في مؤخرة رأسه. الطقسُ ما زالَ بارِداً. أمعنَ النظرَ في الفرخين المرتعشين، بوَّدهُ لو يحملهُما إلى داخلِ غرفته يمنحُهُما شيئاً من دفء، لكن الغرفة باردة أيضاً! استدار يمشي نحو المشجب في ركن الغرفة. حملَ شاله الفيروزي. لَفَّهُ حَوْلَ عُنُقِهِ ودَسَّ الدُّبُوسَ يُبَيِّنُهُ قبل أن يمضي إلى مطبخه يعدُّ قهوته.

«إمداد الوهم ذخيرة اليأس»

خرجتُ من المطبخ أحملُ طبقًا فيه بيضتان مسلوقتان أزلتُ
قشرهما ونشرتُ فوقهما ملحًا وفلفلًا أسود، وكوبَ حليبٍ منحه
الزعفرانُ صفرةً شهية. دأبي أغلي الحليب كلَّ صباح، بعد دقائق
أمضيها مُقعِّيًا في حوشِ الغنمِ إلى جوارِ قُطنة؛ معزتي البربرية البيضاء.
أُسْمِرُّ عن ساعدي أحلبها برفق. ملمسُ ضرعها ودِفْؤُه يمنحاني شعورًا
غريبًا. أنظرُ إلى عَينيها الساهمتين بعيدًا. أنا أُحبُّ قُطنة والكلُّ يعلمُ؛

الدَّجَاجَاتِ وَذَكَرَ الطَّاوُوسَ وَأَنثَاهُ وَدَبُوكَ الْحَبَشِ. أَمْضِي مَعَهَا أَوْقَاتًا طَوِيلَةً أَحَدْنَهَا. لَا يَقْطَعُ حَدِيثِي إِلَّا صَوْتُ الْجَرَسِ الذَّهَبِيِّ الصَّغِيرِ الْمَعْقُودِ بِشَرِيطَةٍ زُرْقَاءَ فِي عُنُقِهَا وَصَوْتُ بَصِيرَةٍ بَيْنَ دَقِيقَةٍ وَأُخْرَى. خَخَخ. أَصَمْتُ ثَوَانٍ إِلَى أَنْ: نَفَا! أَسْتَأْنِفُ بَعْدَهَا حَدِيثِي مَعَ قُطْنَةٍ. يُقَاطِعُنِي صَوْتُ يَجِيءُ مِنْ وَرَائِي. تُحِبُّ الْمَعْزَةَ يَا تَيْس؟ إِنَّا كُنْهُنِي وَالِدِي كُلَّمَا لَمَحَنِي أَتَحَدَّثُ مَعَهَا فِي حَوْشِ الْغَنَمِ. أُرْنَابُ مِنْ نَظَرَاتِهِ الْفَاحِصَةِ لِلْمَعْزَةِ. يَضْحَكُ مُرَدَّدًا مِثْلًا أَكْرَهُهُ: «مَعْزَةُ الدَّارِ تُحِبُّ التَّيْسَ الْغَرِيبَ!». لَمْ أَفْهَ بِكَلِمَةٍ. اكْتَفَيْتُ أَفْكَرُ بِالْغَرِيبِ، وَالْغَرِيبُ.. أَنَّنِي شَعَرْتُ بِالْغَيْبَةِ. وَالِدِي لَا يُحِبُّ قُطْنَةَ، حَاولْ حَلْبَهَا مَرَارًا، لَكِنَهَا لَمْ تَمْنَحْهُ حَلِيًّا قَطُّ كَمَا تَفْعَلُ مَعِي عَنْ طِيبِ خَاطِرٍ.

مَضَيْتُ إِلَى أَسْفَلِ السَّلَمِ حَامِلًا كُوبَ الْحَلِيبِ الْمَغْلِيِّ الْأَصْفَرِ فِي يَدِي، وَفِي يَدِي الْأُخْرَى طَبَقُ الْبِضْتَيْنِ. أَنَا أَكْرَهُ سَلْقَ الْبَيْضِ أَوْ أَكَلَهُ. أَتَخِيلُ الْفَرْخَ مَحْشُورًا فِي الْبَيْضَةِ، مُسْتَقَرًّا فِي قَعْرِ الْقِدْرِ الْمَلِيئَةِ بِالْمَاءِ. أَكَاذُ أَسْمَعُ صِيحَاتِ النَجْدَةِ كُلَّمَا أَزْدَادَ الْمَاءُ سَخُونَةً، يَهْمُدُ الصَّوْتُ عِنْدَ دَرَجَةِ الْغَلِيَانِ، وَلَكِنْ.. يَنْبَغِي أَنْ تَعِيشَ بِصِيرَةٍ، وَلَكِي تَعِيشَ الْعَجُوزُ؛ يَنْبَغِي أَنْ تَأْكُلَ. بِصِيرَةٍ يُحِبُّ أَنْ تَعِيشَ إِلَى الْأَبَدِ، وَإِلَّا فَسَوْفَ يَسْتَحُودُ أَزْرَقٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. قَرَفَصْتُ عَلَى بَسَاطِ الْحَصِيرِ مُقَابِلَ الْعَجُوزِ مِثْلَ كُلِّ صَبَاحٍ. أَمْسَكَتُ مَوْخِرَةَ رَأْسِهَا وَأَقْرَبْتُ كُوبَ الْحَلِيبِ مِنْ شَفَتَيْهَا أَسْقِيهَا. أَهْرَسُ الْبِضْتَيْنِ بَيْنَ أَصَابِعِي الصَّغِيرَةِ أَمْرَجُ بِيَاضًا بِصَفَارٍ، أَصْنَعُ مَا يُشَبِّهُ الْهَرِيسَةَ. أَكُوُّزُ لَقِيْمَاتٍ أَدُسُّهَا بَيْنَ شَفَتَيْ الْعَجُوزِ الْبَايَسْتَيْنِ. أَطَالِغُ وَجْهَهَا النَّازِلَ إِلَى الْأَعْلَى أَبَدًا. تَرْتَسِّمُ عَلَى وَجْهِي عِلَامَاتٍ رَضِي كُلَّمَا فَتَحَتْ فَمَهَا مَتَنَظَّرَةً أَنْ أَلْقَمَهَا الْمَزِيدَ.

أثرها نعرفني كما أعرفها؟ أصمتُ أفلبُ سؤالي في رأسي. أثراي
 أعرفها كما أظن؟ أفرغُ من إطعامها ساهما أتحزى أثر سؤالي على
 وجهها. لا أثر. أنظر إلى الشرخ في سقفها الواطي. أنت وحدك تعرف
 كل شيء! لا تلبثُ بصيرة طويلا بعدما أفضرها. يمتقع وجهها. تطبقُ
 جفنيها عاقدةً حاجبها قبل أن تنتشر رائحة كربة في موضعها. أمضي
 نحو المطبخ أحملُ الكوب والطبق الفارغين. أشمر عن ساعدي عائداً
 إلى أسفل السلم، ملقباً خرقه على كتفي حاملاً دلو ماء. كثيرة هي
 الأشياء التي أقوم بها على مضض، أجبرني على فعلها؛ على رأسها
 سلق البيض والتنظيف أسفل بصيرة وإفراغ قصعتها من البصاق،
 وانتظار زينة ورخال. أنا لا أملكُ خياراتٍ أخرى. لا أعرفُ شيئاً آخر
 عدا أن أذعنُ لفعل ما لا أحب من أجل من أحب، وأنا أحبُ بصيرة،
 وصرتُ أحبها أكثر، بل صارت العجوز موجودةً أكثر منذ رحلت
 أمي. أشتاقُ أمي.. أحبها كثيراً. أحبُ غناءها فجراً. كانت مثلي تُحبُ
 الحمامَ وهديله. دائماً ما تُردّدُ أغنية «نوح الحمامة»، وكُلّما سألتها عن
 سبب نوح الحمامة تُجيبني: اسألها!

أرتقي دَرَجَاتِ السلم ركضاً. أبطئُ خُطواتي في السطح أستشعر
 النسيمات الباردة على وجهي. أنمهلُ في السَّيرِ على الأرضِ المُغبرة
 مُنصِتاً إلى هديلِ الحمامِ فجراً. يكفُ الحمامُ عن هديه وجلاً فور ما
 أدرك ساحة الأقفاص. ساحةٌ مثل بهو البيت غير المسقوف تحيطه
 العُرف من كلِّ جانب، ساحةُ السطحِ مُربَّعةٌ تحيطُها أقفاصُ في
 جوانب ثلاثة. أجلسُ على السحارة الخشبية منتصف الساحة في ظلمة
 الفجر، مثل تمثالٍ لا تصدر عنه نامة. يطمئنُ الحمامُ بعد هدأتي. يعودُ

يناجي بعضه بعضًا على استحياء. هديلٌ يجزُّ هديلًا، حتى يصيرُ مثل أنشودةٍ جماعيةٍ تتخلَّلُها زقزقة زراير ما قبل الشُّروق. أمكثُ مُطِيقًا جفنيَّ مأخوذًا بسحر الأصوات كأنها تعنملُ في أعماقي. أكون ممثلاً بالهديلِ غائبًا فيه، أتنفَّسه، أستمعُ ديبه على جسدي تنميلًا في باطن قدمي الحافيتين فوق الدَّرَقِ البابس، مثل نملٍ يتسلَّقُ ساقِي، يتتبرُّرُ مثل فراشاتٍ في صدري قبل أن يستقرَّ في رأسي مُخلِّفًا إحساسًا بلدقًا لا أعرفها إلا مع قُطنة. أفتحُ عينيَّ مع بزوغ الشَّمسِ. أرفعُ رأسي عاليًا. عشرات الحمامات تطوفُ في السَّمَاءِ حول السَّطح. أصرفُ الفكرة تمامًا عن سؤال الحمام؛ لماذا نوح؟

عرزال

خرج من مطبخه يُحيطُ كوبُ القهوة الساخنة بكفِّه. استدار في الممرِّ ليلجَ عُرفته بظهره. نظر إلى انعكاس النافذة في المرأة عن يمينه. لم تعد فيروز! ينقبض صدره كما في كُلِّ مرَّةٍ تغيب. عساها تعود سريعًا. استدار بصدريه إلى النافذة يمضي إليها. فتَحَهَا ينظرُ بعيدًا، يُمشطُ الزُّرْقَةَ البغيضة بعينه. لا أثر. هو ليس متأكدًا من كونها صارت من أهل الدَّار بعد. الصَّغِيران يرتعشان بردًا. يرتعش هو فرغًا. هل تتخلَّى عنهما الجبانة؟! فيروز لا تفعل، فيروز طارت وسوف تعود مثل كُلِّ مرَّةٍ. وضع كوب قهوته على الطاولة إلى جوار المقعد. اختفى في المطبخ قبل أن يعود إلى عُرفته يدخلُها بظهره حاملًا رغيغ خبز بين يديه. نظرَ في المرأة. وجدَ فيروز على الدُّكَّة. ابتسم مُطمئنًا يهزُّ رأسه. فيروز حلوة. فيروز تُحبُّ صغيريها. كان يُفتَّت الرَّغيفَ ويجمعُ الفئات

في كفه. غرووغ.. غرووغ.. اطمئني. اقترب من نافذته المفتوحة
 مُحترسًا. استدار ببطء يواجهها بصدرة. كان مؤمنًا بأنها سوف تحمي
 صغيرها وقد خرجا من البيضتين وتعرّفت إليهما وألفتهما. مدّ كفه
 مبسوطة بفُتات الخُبز. طارت فيروز. بهت الكهل. تعالي! تعالي يا
 مجنونة! كان يُمنّي نفسه بأن تُدافع عن صغيرها وتضع كفه بجناحيها!
 نثر قطع الخُبز الصغيرة على الدكة غاضبًا. طيري يا جبانة! نف!
 «كُل الألوان أزرق»

عزفت عن الكلام لأيام. صارَ لساني أقلامًا خشبيةً ملوّنة. أمضي
 ساعاتٍ في سطح الدّار، أفرشُ أوراقِي على الأرض المُغبرة والدّرقِ
 مِن حولي، أنظرُ إلى السّماء جنوبًا، أرسمُ حمامتين نمضيان تحليقًا
 صوبَ المدينة. أحرصُ على تلوين حجليهما؛ أحدهما أزرق، والآخر
 وردي. كنتُ أرسمُ ما أرومُ إليه بدافعِ أجهله. أرسمُ وألّون من دون
 توقّف. أنساني لساعاتٍ وقد تكدّست الرُّسومات على الأرضِ أمامي،
 أنقلُ بصري بينها وبين السّماء الخالية. يرتسمُ ظلُّ والدي مُنحنيًا على
 أوراقِي. أرفعُ رأسي أنظرُ إليه مُمتقع الوجه مُقطّب الجبين. يُطلقُ زفرةً
 طويلةً يهرّ رأسه. أنتَ نهدرُ وقتك!

عرزال

جلسَ على ركبتيه أمام النافذة المفتوحة واهنًا مكسورًا. يكادُ
 أنفه يلامس الفرخين على الدكة. يُحدّقُ فيهما. يُمسّدُ على ظهريهما.
 مطمئنان لا تعرفان الخوف يا صغيري.. لماذا تخاف فيروز؟ ها؟
 لأنها وحيدة؟ أين زوجها؟! راح يفكر. أثراه سافر إلى جزيرة؟

اضطرب الكهل وقت باغته السؤال الأخير. خيرٌ لكما أن أباكما ليس موجودًا. نظر إلى نثار الخبز على الدكة. يلتقط قطعة بين إبهاميه وسبائته. يبللها بين شفتيه. قُرَّب أصبعيه من منقار أحدهما. لم يتوان الصغيرُ يفتح منقاره ويحرك لحمتي جناحيه بلهفة. أنت أصغر من أن تعرف الخوف، أنا عرفتُ الخوف مبكرًا، عرفته في السماء، عرفته في البحر، عرفته في والدي، لكن أنت.. دس عِرزال نتفة الخبز في جوف الفرخ الذي أخذ يُحرك رأسه يحاول ابتلاعها، لكنه لفظ نتفة الخبز. صغيرٌ على التهام طعامه لو حده. تَلَفَّت عِرزال يتأكد من غياب فيروز. أمعن النظر حوله كأنما يخشى أن يتبته أحدٌ لفعله. التقط نتفة خبزٍ أخرى. بللها بين لسانه وشفتيه حتى أعادها إلى ما يُشبه العجينة. دسها في منقار الصغير. أسند كفه برفق على ظهر الفرخ. قُرَّب وجهه أكثر. أطبق شفتيه على المنقار وراح ينفخ بلين في حين ينتفض الفرخ تحت كفه. راقب عِرزال نتيجة الفعل جالسًا على ركبتيه ممسكًا بإفريز النافذة بيديه. لم يلفظ الفرخ طعامه. تفرقت دموع الكهل في عينيه. كَرَّرَ الفعل مع الفرخ الآخر وهو ينتفض بكاء من غير صوت. يهتز جسده بغف ويختنق بعبراته وهو ينفخ في جوف فرخ الحمام حتى ابتلع نتفة الخبز المبلولة بريقه. نجح في إطعامهما. أخذ يُنقل بصره بين الاثنين وشفته السفلى مُتدلّية ترتعش. أسند قدميه إلى الجدار أسفل النافذة كأنما يدفعه. انسحب بمؤخرته على الأرض إلى الوراء. ضم ساقيه إلى صدره يُغمغم وسط نشيجه. زينة.. رَحَّال. فتح عينيه على وسعهما. لمعت في رأسه فكرة أفضى بها ذكرُ الاسمين. انتزع دُبوس الشال من أسفل عُقْبِهِ والتفت إلى خزانة الممر. صار يحبو

مخافة أن يُفزعَ فيروز في حال عودتها. وقفت يفتحُ باب الخزانة. يُمشطُ رفوفها بعينيه؛ ثياب نسائية بالية، صوّر بالأسود والأبيض لامرأة مفروقة الشعر بجديلتين طويلتين، كيسٌ شبكيّ يحوي دزيتين من كريات زجاجية، نبيطة وبندقية صيد هوائية وجرس ذهبي صغير معقودٌ بشريطة زرقاء، قطعتا دَيْرَم ملفوفتان بمنديل أزرق، قماطٌ وردي، قماطٌ سماوي الزُرقة، مَصَاصَتِي أطفال وقصعة خزفية وجريدة مُصَفَّرَةٌ أوراقها، وصورة عائلية لا يجدُ نفسه فيها. جلسَ على رُكْبَتَيْهِ. عبثَ في الأدراج السفلية قبل أن يجدَ بُغْيَةً؛ غلبة حلويات قديمة صدئة، أخرج منها بكرة خيوطٍ صوفيّة. اقتطع الكهلُ جزءاً من الخيط، عقدَ طرفه في منتصف دُبُوسٍ شالِه قبل أن يحبو نحو دَكَّة النافذة. حمَلَ أحدَ الفرخين في كَفِّهِ يتحقّق من جنسه.

«الأسماءُ عَبَّاتُ الخلود»

كنتُ قد أوشكتُ أن أجلسَ على السَحَّارَةِ الخشبية في منتصفِ ساحةِ الأقباص، لكنني تنبّهتُ إلى وقوفِ والدي في زاوية السطح، يبدو منهمكاً في شيء، بين الجدار ولوحٍ خشبيّ بضدِّ الرِّيح. تقدّمتُ نحوه بدفعني فضول. حدّقتُ في والدي الذي يحمِلُ في قبضته فرخاً صغيراً، يرفعُ كَفَّهُ الأخرى مُمسِكاً بطرفِ خيطٍ بين سَبَابَتِهِ ووسطاه، تتدلّى في آخر الخيطِ إبرَةٌ معقودةٌ في منتصفها. لم يلتفت إليّ. اكتفى يُبْهِنِي همساً. لا تتحرّك! وقفتُ ساكِناً أراقبُ تأرجحَ الإبرة مثل بندول الساعة. سألتُه ماذا تفعل؟ لم يُجِب. راحت الإبرةُ تتأرجح بحركةٍ مستقيمةٍ بين رأس الطيرِ وذيله. هزَّ والدي رأسه. ذكّر! التفت إليّ.

ماذا نسميه؟ هي المرة الأولى التي يطلب فيها مني أن أطلق اسمًا على إحدى الحمامات. لم أذكر وقتًا كأنما انتظرت سؤاله منذ زمن. رَحَّال! مطَّ شفتيه مُستحسِنًا الاسم. تدارك. لا تُصدِّق هذه الخرافات، أنا أنسَلَى. أعاد الفرخ إلى القفص. حمل الفرخ الآخر يُكرِّر اللعبة ذاتها. صارت الإبرة تتحرك فوق جسد الفرخ بشكلٍ دائري. أفلت ضحكة من أنفه. أنثى! التفت إليّ بتتظر مني تسمية. عقدت حاجبي أفكر. ابتسمت وأنا أرطب شفتي كأنما أستطعم حلاوة الاسم في فمي قبل أن أقول:...

عِرزال

زينة.. زينة! ردَّد الكهل وهو ينشج. يمسح دموعه بظهر كفه والصغيرة في يده الأخرى ما تزال. أعاد غرز الدبوس في شالهِ الفيروزي مُستسلمًا. وضع الصغيرة إلى جوار أخيها برفق بعدما أجرى اختباره عليهما. أطبق زجاج النافذة. مضى إلى مراة الحمام وهو يُفكر، هو لم يرفض أن يطلق الاسمين على أخوي زينة ورخال عندما كان صغيرًا عبثًا. سوف يعودان في حياة أخرى، يربضان على دكة نافذته بعد سنوات طويلة. تسمّر أمام مرآته في الحمام. أفزعته صورته على وجهها وهو يُحدِّق فيها. من أنت؟ ها؟ أطلال النظر في انعكاسه. بشرته شاحبة داكنة وهالات سوداء تحيط عينيه الحمراوين بلون الدَّم، وشعيرات رمادية طالت في ذقنه. رفع كفيه نافخًا صدره عاقِدًا حاجبيه. أطبق جفنيه، ثمَّ باعد بين ذراعيه يضرب بهما الهواء كأنه يُخلِّق مُتسِمًا. صار يذرع الحمام يدور مُغمضًا عينيه. حمام الدار لا يغيب.. لا يغيب يا أزرع.. غرووو؟



صباح رابع

«...نهَضَ عن الأرضِ. وقَفَ على أطرافِ أصابعه ينظرُ بعيدًا. ابتلعنهما الزُّرقة. لم يَغْدِ يراهُما. أَخَذَ يُلَوِّحُ بيديه. يصيحُ بهما: رَحَّال.. زينة! ثم أَطْبَقَ أسنانه على طرفِ ثوبه وراح يركضُ كالمجنون!».

جاء كابوشه صامِتًا إلا من نداءاته للصَّغِيرَيْن، وصوتُ نغمٍ قديمٍ يُراوحُ بين هديلٍ وأغنية تتردَّدُ في ردهات البيت القديم. شَخَّصَتْ عيناه ينظرُ إلى سقفِ غُرفته. أمي! ١٩ حُمِلَتْ في سقْفِهِ ذِي اللونِ البَاهِتِ والدَّهَانِ المتقشَّرِ. اعتدلَ جالِسًا في سريره. راحَ يحكُّ صلعتَهُ ويتلفَّتُ ساهِمًا في زوايا الغرفة، كأنما أصواتًا قديمةً تتردَّدُ في المكان.

«لوعتْ بهيَّت»

أَحِبُّ أَنْ تهْدِلَ الحمامة الأم أكثر من أي حمامةٍ أخرى. هي لا تَكُفُّ هديلها حتى وقتَ نِصْمَتِ حماماتِ السَّطْحِ ليلًا. تهْدِلُ بنغمٍ شَجِيٍّ مُغَايِرٍ. لا تُغْمِضُ عينيها، تحت سماءٍ مُتَوَهِّجةِ النجومِ في غيابِ القمر، ترنو صوبَ الجنوبِ ساكنةً. صرَتْ أحاكي هديلها، أُجِده لكثرة ما أَمْضِيْتُ اللَّيالي أَنْصِتُ إليه. تَنْبَثُّ ذات مساءً إلى أَنَّ الحمامة الأمَّ وحيدة، وحده عارضة إلى حين عودَةِ صِغارها، لكن، لم أسألني يومًا أينَ هو ذِكْرُها. كان في الجوارِ دائِمًا. أُنْذِرُهُ لا يُطْبِلُ غيابًا إلا أنه لم يَغْدِ. كُنْتُ أَحِبُّ في زوجِ الحمامِ حُسْنَ عِشْرَتِهِ. لا يتخلَّى واحدُهما

عن الآخر منذ ارتباطهما ما دام كلاهما على قيد الحياة. يتشاركان بناء العش، يتناوبان الرقود على البيض وجلب الطعام وتغذية الأفراخ. يكاد من لا يعرف الحمام مثلي لا يُميز بين ذكرٍ وأنثى. كلاهما يقوم بجزء من الدور ذاته إخلاصاً لحياة صغارهما. أنا أحب الحمام لأنه مُخلصٌ لعائلته، وفيّ لإداره. لكن غياب زوج الحمامة الأم ومن ثم غياب صغارها بعد أيام، في رحلة بدت بلا عودة، نسف كل إيماني بطبيعة الحمام.

عرزال

أخذ يترنم بشدوٍ قديم في ذاكرته وهو ينظر إلى دكة النافذة. فيروز تُطعم صغيرها. هبط من سريره يحبو ببطء على الأرض الباردة يمضي نحو المطبخ. ينظر من وراء كتفه إلى الثلاثة وهو يتسهم. نهض فور ما أدرك الممر خارج الغرفة. استدار يطل بنصف وجهه. يُطيل النظر إلى فيروز المنشغلة عنايةً بصغيرها. الأمومة أمرٌ عظيم، لكن! لماذا تخاف الأمهات؟ أنا أكره الخوف. هو لا يتذكر من أمه إلا صوتها؛ غناءً أو خوفاً. أطبق جفنيه بشدة يحاول عبثاً أن يتذكر شيئاً آخر؛ ملامحها، ثيابها أو رائحتها. لا شيء غير الغناء والخوف منذ أمس. يولي ظهره لغرفته ونافذة فيروز. يمضي نحو المطبخ يُجهز قهوة كل يوم.

«الغناء زاد الروح في الأيام الحزينة»

وحدها الحمامة الأم تخطط الليل بالنهار هديلاً. رابضة تولى

صدرها شطر الجنوب وجهة الغياب والإياب، إلا أن آتيا من الغائبين لم يعد. نحل جسدها منذ غاب زوجها وبقية الصغار الذين أطلقهم والدي في الصحراء للمرأة اللا أدري. مالت رقبتها، تهدل جفناها على مُتصِف عينيها. صارت ريشاً على عظم واهن، وأنا مُتصرف عن كُلِّ التحوُّلات الطارئة عليها، غائب في سحر الهديل، خدرٌ يتسلَّل إلى داخلي من مسامات جلدي. أنظرُ إلى الحمامة الأم ملتوية الرقبة بشفقة. أخشى أن يُصيبها بورقية، صرع الحمام، حُزناً على صغيرها. أطمئن نفسي بأن لو أصابها المرض لانتبه والدي، وعرضها للشمس لثلاثة أيام بعد نتف ريش رقبتها ودهنه بالتشوق. إغالي بالتفكير كاد أن يُفقدني صوابي، ماذا لو استمرَّ المرض؟ أعرف والدي لن يتوانى عن فصل رأسها عن جسدها! أدت ظهري أمشي على أطراف أصابعي خلسة نحو السَّلَم نزولاً، خشية أن تقطع هديلها الشَّجي.

أطوق رأس قُطنة بين ذراعي في حوش الغنم أهمس لها. الحمامة الأم لا تكفُّ هديلها. نحل جسدها أصابها المرض، لكن الهديل كلما ساءت حالتها صار أكثر سحرًا. الحمامة الأم تتأسى بالغناء عزال! قالت قُطنة. كاذ قلبي يفتر من بين أضلعي وقت بادرنِي الصَّوت. أحكمتُ شدَّ ذراعي حول رأسها كأنما أحاول خنقها لئلا يُبادرنِي الصَّوت ثانية. نفضتُ رأسي أتبَّهني. المعزة لا تنطق! أفلتُ رأسها وقت ملأت الحوش بِثغائها. فزت هاربة تلوذُ بالواح الصفيح والخشب. لم تدرُ الكلمات إلا مِنِّي! رحتُ أُنطق ما سمعت ولكن.. أن يجيء الصَّوت مِنِّي يعني أن بصيرة هي الأخرى لم.

جفت ريفي، وكانت بثرنا مالمحة يومها.

عرزال

خرج من المطبخ بكوب القهوة يسير على أطراف أصابعه ثقيلًا إلى غرفته. فيروز ليست هنا. طل على زينة ورخال الجديدين في عش الدزق والزيش والأسلاك والعيدان الخشبية. صارا أكبر حجمًا وهما في عمر أسبوع يُغطيّهما الرغب وقد استحال لونه داكنًا. مُكتنزان يبدوان في صحّة جيّدة. جلس على كرسيه يُحملك في امتداد الزُرقة وراء النافذة. يمسح السماء بعينه نزولًا إلى البحر مضطرب الموج. عيناه مفتوحتان على البعيد، لكنه ينظر إلى ما يومض في رأسه؛ سفينة عملاقة توليه مؤخرتها تمضي مُبحرة عند تلاقي الزُرقتين. ردّد ما جاء في أغنية قديمة: «عبّروا مضنوني، يا أهل المراكب، عبّروا مضنوني». تنهد. الأزرق، منذ الأزل، هو لون الغياب والفقد!

«فتق في ثوب حقيقة ورُقعة كذب»

مسحت على ظهر قُطنة المفروق. أتوسل سماع صوتها ثانية بعد يومين. تخيلي قُطنة نتف والدي ريش رقيتها، بقي الشعير على حاله في قفص الحمامة الأم! لم تمسّ حبّة واحدة، لكنّها ما زالت تهديل! نظرت المعزّة إلى عيني وهي تلوك البرسيم بغير اهتمام. صدّقني قُطنة! هي حزينة، ولهذا هي دائماً تُغني! المعزّة لم تزل تُبحلق فيّ بغير اكتراث، لا تنفك تُحرّك فكّها الأعوج برتابة فيما يُصدر جرسها رنينًا باهتًا. هربت بنظري عن نظرتها مُطرقًا. أمسكتُ بعود برسيم يابس.

رحتُ أرسمُ خطوطاً في التراب بين قوائم المعزة. هي حزينةٌ بسبب هجر إخوتك عزال! التفثُ إلى قُطنة مُتَفَضِّلاً. ماذا قُلْتَ؟ من هي؟ المعزةُ تنظرُ إليَّ بِلَامةٍ ولسانها متدلُّ خارج فكَّيها. اغرورقت عيناها. ليس لديَّ إخوة. مسحْتُ دمعاً علقَ في محجري. أنا لستُ حمامة كي نصير الحمام المسافرة إخوتي! لسانها الورديُّ لم يزل مُتدلِّياً. أخرجتُ لسانها. قَرَّبْتُ وجهي إلى وجهها بحذر. أغمضتُ عيني. ريقكُ عذبٌ قُطنة! رحتُ أضحكُ في خجل. أولتني المعزة مؤخرتها مُبتعدةً عني وجَرَّسها الذهبي الصَّغير يُصدر رنينه. رحتُ أحدقُ في أسفل ذيلها المنتصب شارِد الذَّهن.

عزال

تنبه من شروده وقتَ حطَّت فيروز على دُكَّة النافذة. ابتسم. فيروز! قَطَّبَ حاجبيه يتفكَّر في الاسم وقد لفظه لأول مرَّة بصوت مسموع. رفر الاسم في أذنيه. فيروز فيروز فيروز. كَرَّر الاسم وهو يجترُّ صَوْرًا قديمة. هزَّ رأسه يطرُد الصُّور التي صاحبت لفظه الاسم. تسارع وجيب قلبه. حكَّ صلعتة مُغمغمًا. تسلَّل مثل لصٍّ إلى خزانة الممر. فتح بابها الخشبي. نظرَ إلى باطن الباب. جديلتان، واجدتهما بطول ذراع، معقودة آخرهما بشريطتين فيروزيَّتين. لا يتذكَّر متى قام بتعليقهما. أسندَ كَفَّيه إلى خشب الباب. قَرَّب وجهه يتشَمَّم الجديلتين في نفسٍ عميق. لا! صرخ مُطلقاً لاءُ من قاع جوفه. أطبق باب خزانة الممر بقوة. لم يجد فيروز حينما دخل غرفته بصدره باهتًا ساهمًا يتصبَّب العرق من جسده بغزارة رغم البرد في غرفته. جلس على

السَّرِيرِ خَائِرِ الْقَوَى يُحَلِّقُ فِي الْأَرْضِ. أَعْمَضَ جَفْنَيْهِ بِشِدَّةٍ كَأَنَّمَا
شَاهَدَ فِي الْأَرْضِ مَا يَوْجِعُهُ. ارْتَمَى بِظَهْرِهِ عَلَى سَرِيرِهِ وَأَطَالَ النَّظَرَ
فِي السَّقْفِ. لِمَاذَا أَنْتَ صَامِتٌ هَكَذَا؟ هَا؟ أَنْتَ تَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ...
كُلَّ شَيْءٍ. أَعْمَضَ عَيْنَيْهِ.

«اسْمُهَا فَيَرُوزُ»

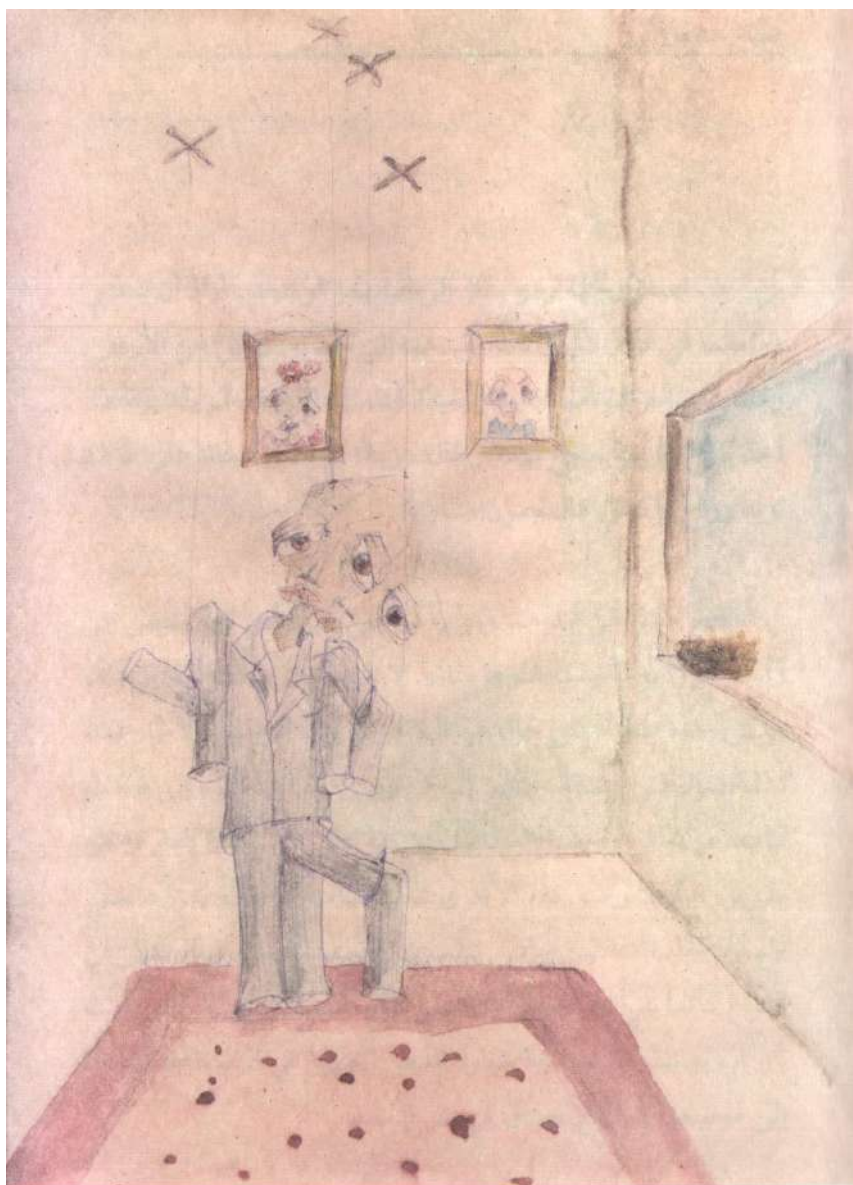
بِالْكَادِ فَتَحْتُ عَيْنَيَّ عَلَى مُتَتَصِفِهِمَا. كَانَ وَالِدِي قَدْ أَطْلَقَ
حَمَامَاتِهِ الْأَرْبَعَ لِلْمَرَّةِ اللَّائِي أُدْرِي. كَثَافَةُ الْغُبَارِ أَسْفَلَ الشُّحْبِ أَحَالَتِ
السَّمَاءَ فَوْقَ سَطْحِ الْبَيْتِ حَمْرَاءَ كَامِدَةٍ. الْأَرْضُ وَالْأَقْفَاصُ وَكُلُّ
شَيْءٍ مُغَطًى بِالتَّرَابِ وَالطِّينِ كَأَنَّمَا زَلْزَالَ مَرٌّ مِنْ هُنَا قَبْلَ سَوِيَعَاتِ.
هُوَ مَوْسِمُ السَّرَّايَاتِ غَيْرِ مَفْهُومِ الْمَزَاجِ. نَهَبْتُ رِيحَ الْكُؤُسِ مِنْ
الْجَنُوبِ مَسْحُونَةً بِالْأُتْرَبَةِ. لَا تَتَوَانَى الرِّيحُ تُغَيِّرُ اتِّجَاهَهَا دَوْرَانًا مَعَ
عَقَارِبِ السَّاعَةِ، رِيحٌ غَرِيبَةٌ عَاصِفَةٌ مَجْنُونَةٌ لَا تَدُومُ، تَنْسَحِبُ تُغْرِي
رِيحَ الشَّمَالِ تَعْصِفُ بِالْمَكَانِ نَهَزَتْ قَصَبَاتِ اللَّاقِطَاتِ الْهَوَائِيَّةِ وَتَنْزَعُ
الْمَلَابِسَ مِنْ حِجَالِ الْغَسِيلِ. وَمِيضُ بَرْقٍ يَتْبَعُهُ هَزِيمٌ. رَحَّاتُ مَطَرٍ
كَثِيفَةٌ تَوْشِكُ أَنْ تَفْسَلَ كُلَّ شَيْءٍ سُرْعَانِ مَا تَنْقُطِعُ. شُحْبُ غُبَارٍ
تُدَاهِمُ الْمَدِينَةَ. يَعَاوِدُ الْمَطَرُ نَزُولَهُ رِذَاذًا يُدْرِكُ الْأَرْضَ طِينًا لَزْجًا. هُوَ
يَوْمٌ صَعِبٌ بِشَهَادَةِ مِلْحِ الْبُثْرِ. مَشَيْتُ عَلَى أَرْضِ السَّطْحِ الرَّزْلَقَةِ بِحَذَرٍ.
لَاذَتِ الْحَمَامَاتُ بِأَقْفَاصِهَا. كَيْفَ لِلْحَمَامِ الْمُسَافِرِ أَنْ يَسْتَدِلَّ طَرِيقَهُ
إِلَى هُنَا؟ كُنْتُ أَسْأَلُنِي. حَثَّتُ خَطْوِي إِلَى قَفْصِي الْأَثِيرِ. اكْتَمَلَ
نَمْوُ الْفَرَخَيْنِ الْجَدِيدَيْنِ. أَبْقَيْتُ عَلَى مَسَافَةِ بَيْنِي وَبَيْنَهُمَا. سَوْفَ
أَنْظُرُ فِي شَأْنِهِمَا، أَسْمِيَهُمَا، بَعْدَ أَوْبَةِ زِينَةٍ وَرَحَالٍ. أَزَحْتُ غُرَّتِي عَنْ

هينئ أنلقثُ أبحتُ عن أمهما المكلومة بنوبات الفقد. وجدتُ فوق
 السخّارات الخشبية المليئة بالذّرق الحمامات الأربع؛ غادي ورايحة
 وسقّار وعوّاد، ثابتات ملتصقات ببعضها البعض. أفلتُ زفيرًا طويلًا.
 ابتسمتُ وقد فاجأتني عودتها قبل عصف الرّيح. كدتُ أطمأ ماذا؟
 أطرقتُ أنظرُ إلى جسمٍ بين قدّمي الصّغيرتين. شاهدتُ في الأرض
 ما أوجعني. الحمامة الأمُ كأنما تحتضنُ الأرض مفتوحة الجناحين
 مطبقة جفنيها يكسوها الغبار. أقعيتُ إلى جوارها أنظرُ إلى عنقها
 متوف الرّيش وقد فصل عن جسدها. قُتلتُ فيروز. قلتُ لنفسي وأنا
 أنعرّف الموت لأوّل مرّة وقت أطلقتُ الاسم أوّل مرّة. لا أدري لماذا
 أسميتها فيروز بعد نفوقها. كأنما أردتُ لشيءٍ منها يتمسكُ بالحياة،
 لم أكن أفقه سببًا إزاء التسمية غير حاجتي لأن أبقّيها هنا، في هذا
 الرأس، وكيف لشيءٍ أن يظلّ خالداً من دون اسم! لم يأبه والذي
 كثيرًا لفقد الحمامة الأم. مردّ كلّ شيءٍ إلى موت. كان يقول. لا
 يُلطّف حقيقةً ولا يكفّ يُذكّرُ بها، وكان الدّماء لم تُلطّخ يديه قط.
 عرزال

فتح عينيه يُحرّك بؤبؤيه على سقفيه باضطراب. نهض الكهل
 مُعتدلاً في جلسته فوق السّرير. رأسه إلى الأعلى لا يزال، يُحلقُ
 في شرح السّقف. بماذا كنتَ تهتمُّ؟ أنتَ الشاهدُ على كلّ شيءٍ.
 استفزّه صمتُ السّقف، وصوتٌ شجيّ في رأسه يتردّد. نهض يمضي
 نحو ممّر الخزانة. فتح بابها ولم يلتفت إلى الجديلتين المعلقتين إلى
 باطن باب الخزانة الخشبي. يحاول أن ينظرَ إليهما ويصدّه شيءٌ في

نفسه. رأسه يرتجف. يدس كفه في كيس البذور. يستدير ماضياً في
السَّيرِ إلى الحمام. يواجه انعكاسه في المرآة. شعره منكوش حول
صلعته منذ استيقاظه. بسط كفه أمام وجهه كاشفاً عن جبوب الشعر
راح يتشممها بنفس عميق. سرت رعدة في جسده. نظر إلى صورة
في المرآة يتحقق من كونه هو. العروق الحمراء تنتشر في عينا
الشَّهلاوين. بدا لنفسه شخصاً آخر. انحنى على كفه المبسوطة ثانياً
يلتهم الشعر. يعاود النظر في المرآة وهو يطحن الجبوب بين أسنانه
غرووغ.. غرووغ!

* * *



صباح خامس

«... اصفرَّ وجهُهُ وهو ينظرُ إلى غيَابِهما الوشيك. أرادَ أن يمضي وراءهما في التَّيه الأزرق لعلَّهُ يُعيدهما إلى حُضْنِه. نهَضَ عن الأرض. وقَفَ على أطرافِ أصابعه ينظرُ بعيدًا. ابتلعتُهما الزُّرقة. لم يَعد يراهُما. أخذَ يُلَوِّحُ بيديه. يصبحُ بهما: رَحَّال.. زينة! ثم أَطبقَ أسنانه على طرفِ ثوبه وراح يركضُ كالمجنون!..»

فتحَ عينيه عن آخرهما. هزَّ رأسه على غير دأبه، كأنه ينفضُّ عن رأسه صُورًا يوميةً يستحضرها منامه. لا يريدُ أن يرى أكثر. لا يريدُ أن يتذكَّر. جدَّة طارئة على حالٍ عرزال. هو لا يريدُ أن يقبل بالأمر. عيناه تشخصان في السَّقْف ينظرُ إليه في ريبة. كأنه انتبه لتوّه إلى صمتِ أيامه، عزلته في وحشة المكان. مرَّ كَفُّه على المساحة الفارغة من سريره البارد. وضع كَفُّه الأخرى تحت منامته الرَّمادية يُمرِّرها على جسده. جلده متغضَّن جاف. تنهَّد. شردَ بعيدًا. تملَّت عيناه النظرَ في الفراغ كأنما يقرأ نصًّا خفيًّا. مالَ على جانبيه يُمِيكُ بالهاتف. لم يعث بأزراره يُهاثِفُ طليقته. بدا شارِدَ الذهنِ يُحمِلُ في السَّماعة. أعادها إلى موضعها ثم راح يحدِّقُ في شرح سقفيه.

«وَيَصِيرُ الصَّمْتُ جَوَابًا»

في الثالثة عشرة كنت، أو الرابعة عشرة ربما، عندما أمضيت وقتًا

طويلاً في حوشِ الغنم، مُندساً تحت لوحٍ من الصَّفِيحِ أحنطه بالواحٍ خشبية، في غفلةٍ من الدَّجاجات وزوج الطاووس وديوك الحبش. كان الصَّيْفُ لا هباً ورياح السَّموم تُجفِّفُ العروق. قرفصتُ على الأرض فوق أعوادِ التبنِ الجاف، متحرراً من كلِّ شيءٍ إلا سروالي القطني. عبثتُ بضرعِ قُطنةٍ ومشدتُ شعرها. طَوَّقْتُ عُثْقَهَا بِذِرَاعِيٍّ. وضعتُ رأسها بين كَفِّي ورحتُ أُحَلِّقُ في عينيها. أصحیحُ ما يقوله والذي دائماً عن معزة الدَّار؟ هل تتوينَ ترك بيتنا، قُطنة، لترحلي مع النِّسِ الغريب؟ انْسَلِّ إِلَيَّ حشرجات صدر المعجوز في البهو. أصمتُ لثوان. رُدِّي عليّ قُطنة، قللي شيئاً. تبصقُ بصيرة هناك. تُجَيِّنِي قُطنةُ هُنا صمّاً ودمعةً علقَتْ في هدبها. قَرَّبْتُ وجهي إلى وجهها مادّاً لِسَانِي. لعقتُ دمعنها. أنتِ مثلِ بثرنا المجنونة في وسط البهو، تمنحين ريقاً عذباً أو دمعاً مالحاً وفقِ مزاجكِ. أفلتتُ رأسها من بين كَفِّي تبتعدُ مُتقهقرة. بدتْ مُرتبكةً تُحَمِّلُنِي في شيءٍ ما على الأرضِ عند زاوية حُجْرَةِ الصَّفِيحِ والخشب. انسلتُ مُسرعةً خارج الحُجْرَةِ. التفتُ إلى الزَّاوِيَةِ أعاينُ ذلك الشيء الذي نفرت منه قُطنة. جِسْمٌ غير مألوفٍ مُلتَوٍ شفيف أصفر. أفعى الدَّارِ مرَّت من هُنا. ارتديتُ ملابسِي ومضيتُ إلى أسفل السَّلَمِ أُفرِّغُ قَضْعَةَ بصيرة.

عرزال

أبعدَ عَيْنِيهِ عن شرخ السَّقْفِ مُجفلاً. طرد خيالاته مع قُطنة. أخرجَ كَفَّهُ من تحتِ منامته خَجِلاً. نظرَ إلى النافذة. فيروز لم تُعد تَدسُّ الطعامَ في منقاري صغيريها. تكتفي بوضعه على الدَّكَّة. صار

بإمكانهما اليوم أن يأكلا من دون مساعدة الأم. ارتسمت ابتسامة هجينة بين جزع وجبور على وجه عِرزال الكهل. ينظرُ بودٌ إلى الصَّغِيرَيْن وقد كساهما الريشُ الرَّماديُّ الدَّاكِن. مفقارهما ما زالا متورَّمين شأن أي حمامة غير مكتملة النمو. إذا ما نُجِتَ المتقارُ واتخذَ شكله النهائي تكونُ دلالات اكتمال النمو قد تَمَّت. أيامٌ قليلة وتطيران.. زينة.. رحال.. عِداني بأنكما لن تُطَيلا الغياب.

هرعَ إلى النافذة مُسرِّعًا هذه المَرَّة. طارت فيروز. همَّ الصَّغِيرَان يتبعانها. يقفان على حافة الدُّكَّة بقوائيمهما الحمراء، يُصَفِّقان أجنحتهما من دون أن تتزحزح أقدامُهما قيدَ إصبع. يجفلان. يُخَفِّقان في الفرار. يتراجعان إلى آخرِ الدُّكَّة. يلتصقان ببعضهما مُرتعشين. فتح الكهلُ النافذة. انحنى على الحمامتين المذعورتين. أنا عِرزال.. وعِرزال لا يُخيفُ أحدًا.. عِرزال ليسَ أزرَق! ترك النافذة مفتوحة. استدَار نحو سريره ثانية. ألقي بظهره على السَّرير. يستفزُّه السَّقْف. أمسَكَ باللحافِ يلقيه على وجهه.

«طلقة في صدرِ قطنتي»

ضمَّ والدي ساقه اليُمْنَى إلى صدره مُتَكِنًا بركبته اليسرى على الأرض. صدره لصقَ ظهري. فكَّهُ السُّفْلِي مستقرًا على كتفي الأيسر. يُطَبِّقُ كَفَّيْهِ على كَفِّي المُمَسِّكَتَيْن بينديّة صيدٍ هوائيةٍ غصبا. فُوّهة البنديّة مُصَوِّبة إلى معزتي البيضاء التي أطلقها في البريّة قبل دقائق. أستشعرُ رطوبةً ودفعًا أنفاسه ورائحة التبغ رفقة صوته الهامس في أذني. احبس أنفاسك يا ولد قبل أن تضغط الزناد. معزتي البيضاء

تبدو هادئة تحت شجرة صفصافٍ عملاقةٍ شَمَخَتْ فِي الْبَرِّيَّةِ. هانئة في
أمنها تُفَطِّسُ خَطْمَهَا فِي بَرَكَةِ مَاءٍ خَلْفَهَا الْمَطَرُ. أَتَذَكَّرُ طَيُورَ الشَّجَرَةِ
مَنْهِيئَةً مُرْتَابَةً حَتَّى خِلْتَنِي أَنْصِتُ إِلَى هَمْسَاتِهَا تُنَبِّهُ قُطْنَةَ الْغَائِلَةِ إِلَى
وُجُودِنَا. أَتَذَكَّرُ الْوَزَلَ زَيْتِي اللَّوْنُ الدَّاكِنُ الْمُغْبِرُّ عَلَى تَلٍّ رَمْلِيٍّ غَيْرِ
بَعِيدٍ، يَسْتَظِلُّ بِنَبْتَةِ رَمْرَامٍ يَابِسَةٍ، مَاذَا عُنْقَهُ كَأَنَّمَا يَسْأَلُ مُرْتَابًا مَنْ هُنَاكَ؟!
يَمَضُغُ الْهَوَاءَ بِفَمٍ مُفْتَوِّحٍ، كَأَنَّمَا يُحَدِّثُ نَفْسَهُ مُسْتَنْكِرًا كَانَتَيْنِ طَارَتَيْنِ
يُفْلِقَانِ رَاحَةَ الْبَرِّيَّةِ. أَتَذَكَّرُ مِلْحَ دُمُوعِي عَلَى شَفَتَيَّ وَالْخَوْفَ يَطُوقُنِي
بِأَمْزِينٍ؛ أَنْ تُصِيبَ طَلْقَتِي مِعْزَتِي الْأَثِيرَةَ وَأَنْ يَلْمَحَ وَالِدِي الدَّمْعَ فِي
عَيْنَيَّ. لَمْ أَضْغَطْ الرُّنَادَ. وَالِدِي هُوَ الَّذِي فَعَلَ، أَقْسِمُ أَنَّهُ هُوَ، لَكِنْ
الْبُنْدُقِيَّةُ كَانَتْ بَيْنَ يَدَيَّ وَكُلُّ طَيُورِ الْبَرِّ وَزَوَاجِفُهُ تَشْهَدُ ضَدِي. سَقَطَتْ
قُطْنَةُ عَلَى جَانِبِهَا بَيْنَ الرَّمْلِ وَالْمَاءِ تُفْرِفِرُ وَتَضْرِبُ الْهَوَاءَ بِقَوَائِمِهَا.
غَابَ بَيَاضُ صَدْرِهَا بِحُمْرَةِ الدَّمِ الَّذِي تَشْرَبُهُ شَعْرُهَا وَامْتَصَّتِ الثَّرَابَ
قَلِيلَةً. رَفَعْتُ رَأْسِي وَالدَّمُوعُ مَلَأَ وَجْهِي أَنْظَرْتُ إِلَى السَّمَاءِ أَرَصُدُ
رُوحَ بِيضَاتِي فِي مِعْرَاجِهَا رَغْمَ أَنْ طَلَقَتْ بُنْدُقِيَّةَ الصَّيْدِ الْهَوَاتِيَّةَ لَا
تَقْتُلُ حَيَوَانًا بِحَجْمِ مِعْزَتِي. دَفَعَنِي وَالِدِي مِنْ وَرَائِي. وَلَدًا ارْكَضْ
وَاحْضَرِهَا قَبْلَ أَنْ يَسْبِقَكَ إِلَيْهَا كَلْبٌ مَسْعُورٌ أَوْ صَقْرٌ جَائِعٌ. أَيُّ خِزْيٍ
أَمَالَ وَجْهِي إِلَى الْأَرْضِ ظَهِيرَةً يَوْمِي ذَاكَ! اخْتَنَقْتُ بِشَهْقَاتِي كَيْ لَا
يَسْمَعَهَا وَالِدِي. مَشَيْتُ ثَقِيلَ الْخُطَى غَيْرَ قَادِرٍ عَلَى رَفْعِ رَأْسِي فِي
حَضْرَةِ الصَّفْصَافَةِ الشَّامِخَةِ وَسَاكِنِيهَا. كُنْتُ أَنْصِتُ إِلَى وَشْوَشَةِ كُلِّ
الْكَاثِنَاتِ تَلْعُنِي. ارْكَضْ يَا وَلَدًا صَاحِبِي وَالِدِي. رَكَضْتُ مِثْلَ كَلْبِ
صَيْدٍ مَأْمُورٍ. سَقَطْتُ مُتَعَثِّرًا بَضْعَفِي. أَثَرْتُ حَفِيظَةَ وَالِدِي. هَزَّ رَأْسُهُ
حَانَقًا. اسْتَنْقَمْتُ وَالْغُبَارُ عَلَى ثُوبِي. وَلَجْتُ الْمَسَاحَةَ الظَّلِيلَةَ الْكَبِيرَةَ

أسفل الشجرة العملاقة. انحنيت بذلّ. أمسكتُ بِقُطنة الجريحة مِن قوائِمها أحملُها كالمشلولة. مسحتُ سوائِل وجهي بكتفي المثربة حتى أحلثُ دموعي ومخاطي خيوطاً من الطين على وجهي. استدرتُ أواجه والذي أفتعل تماشكاً. المعزّة بين يدي رخوة مُدعنة تُصدِرُ ثغاءً واهناً، يتدلى رأسها متارجحاً، والدّم يرسمُ نقاطاً تُحاكي خُطواتي. ناولته الصّيد. نمتَم بِصِفني لأوّل مرّة. رجل!

ركضتُ إلى أسفل السّلم فور وصولي إلى البيت أندش تحت لحافٍ بصيرة، مُتخفياً عن سقّفها العليم، سمعتُ صوتَ قرع أوانٍ في المطبخ. كان والذي مشغولاً بِقُطنة يتزعّج الطلقة مِن صدرها الدّامي. بكيتُ من دون صوت إلى أن خرج والذي مِن المطبخ يمسحُ بظهر كفّو حليياً بلّل شاربه الكثّ.

بصيرة مولية وجهها إلى سقّفها المشروخ، ولا يزيدُها السّقفُ إلا صمتاً فوق صمت. لا هي تُحدّثُ أزرق فتقنعه، ولا هو يُنصتُ إليها فيقنعه. دسّت كفّها أسفل اللّحافِ ثُمّسدتُ رأسي.

عرزال

أزاح اللّحافَ عن وجهه مُبعداً عينيه عن السّقف. مضى إلى مطبخه يُحضّر قهوته مثل رجلٍ ألي. وقفَ أمام الموقد وقد أشعل النار. بحلق في ماء القِدْرِ مُضطرب الحاجبين كأنما يشاهدُ أمراً جليلاً في قعر قِدره. يُمعِنُ نظره. فقاعات صغيرة تنسلُّ من القاع تنفجِرُ في السّطح. تناهى إلى مسمعه صوته القديم مُنادياً. رَحاًال.. زينة! بهت. أبعدَ ظهره إلى الورا مُبقياً بصره على القِدْرِ. تغيّر لونُ الماء

في نظره. زُرْقَةٌ يَمْقَتْهَا انْبَثَقَتْ فِي الْمَاءِ السَّاخِنِ. نَفَضَ رَأْسَهُ. جَعَلَ يَقْضِمُ أَظْفَارَهُ مُبْهِلِقَ الْعَيْنِينَ. دَاهَمَتْ صَوْتُهُ الْآتِي مِنْ أَمْسِهِ ثَانِيَةً. أَطْبَقَ كَفَّهُ عَلَى أُذُنَيْهِ فِي حِينَ نِدَاءِ أَتِهِ الْقَدِيمَةِ تَتَزَاحَمُ دَاخِلَ رَأْسِهِ. أَدَارَ ظَهْرَهُ لِلْمَوْقِدِ وَأَخَذَ يَدُورُ فِي الْمَطْبَخِ مِثْلَ ذَنْبٍ جَرِيحٍ. النَّدَاءَاتُ فِي رَأْسِهِ تُخَالِطُ خَفْخَفَةَ الْمَاءِ الْمَغْلِيِّ. التَفَتَ إِلَى الْقِدْرِ. مَضَى إِلَيْهَا مُسْرِعًا. وَقَفَ أَمَامَ الْمَوْقِدِ مُنْحِنِيًا مُتَرَدِّدًا. يَعْقِدُ حَاجَبِيَهُ يُضَيِّقُ عَيْنَهُ كَأَنَّمَا يَبْحَثُ عَنْ شَيْءٍ وَرَاءَ الْبُخَارِ الْمُتَبَعِثِ مِنَ الْمَاءِ الْمَغْلِيِّ. غَطَسَ كَفَّهُ الْيُمْنَى فِي الْقِدْرِ وَهُوَ يَصِيحُ بِالصَّغِيرِينَ. زِينَةُ. رَحًا!!! أَلَا أُخْرِجُ كَفَّهُ مُلْتَهَبَةً ثُمَّ رَاحَ يَرْكُضُ كَالْمَجْنُونِ.

«صَمْتُ عَلَى صَمْتُ»

رَكَضَتْ إِلَى قُطْنَةٍ فِي حَوْشِ الْغَنَمِ بَعْدَمَا أَفْرَغَتْ قَضْعَةَ بَصِيرَةٍ، كَأَنَّمَا أَطْلَبُ رِضَاهَا وَغُفْرَانَ مَا أَكْرَهْتُ عَلَى فِعْلِهِ. وَقَفْتُ لَاهِنًا وَسَطَ الْحَوْشِ أَصْبَحُ مُتَلَفِّتًا. قُطْنَةُ.. قُطْنَةُ! يُجِيبُنِي الصَّمْتُ بِرَحِيلِهَا. لَمْ تَكُنْ عِنْدَ الْحَوْشِ الْبَلَسْتِيكِيِّ تَكَرَّرُ مِنْ مَائِهِ، وَلَا قُرْبَ أَكْوَامِ الْبَرَسِيمِ تَعْتَلِفُ، وَلَا نَسْتَظِلُّ تَحْتَ لَوْحِ الصَّفِيحِ وَرَاءَ أَلْوَابِ الْخَشَبِ. فَتَشَتْ عَنْهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ. لَا أَثَرُ إِلَّا لِجَرَسِهَا الذَّهَبِيِّ الصَّغِيرِ بِشَرِيطَتِهِ الزَّرْقَاءِ فَوْقَ الْبَرَسِيمِ الْيَابِسِ. ارْتَابَتِ الدَّجَاجَاتُ لَجَنُونِي وَتَنَاثَرَتْ فِي الزَّوَايَا تُتَقَنَّقُ. انْكَمَشَ ذَيْلُ الطَاوُوسِ الَّذِي كَانَ مُتَهَمِكًا بِمُغَازَلَةِ أَثْنَاءِ، هَرَبَ صَاغِرًا يَكْنُسُ الرَّمْلَ بِذَيْلِهِ. انْدَسَّ إِلَى جَوَارِ أَثْنَاءِ وَرَاءَ أَخْيَاشِ الْعَلْفِ فِيمَا كَانَ دَيْكُ الْحَبَشِ يُحْمَلِقُ فِيٍّ، بِوَجْهِهِ الْأَحْمَرِ، يَصِيحُ بِي حَانِقًا مُتَخَابِلًا أَمَامَ إِنَائِهِ الْمَذْعُورَاتِ. لَمْ أُعِرْهُ اهْتِمَامًا وَأَنَا أَلْتَقِطُ أَنْفَاسِي

أنفكرُ فيما قاله والدي. ما كدتُ أنذُكرُ كلماته وأستعيذُها حتى لفظها
 ضاحِكًا: معزةُ الدَّارِ، يا ولد، تُحبُّ التَّيسَ الغريب! التفثُ ورائي.
 وجدته واقفًا يَضُمُّ ذراعِيه إلى صدره. أطبقتُ فكيَّ أُشيرُ إليه بسبَّابتي.
 أنت تكذب! صحتُ به. لطمني لطمَةً أوقعتنِي أرضًا. أزرق لا يكذب!
 قال، ثُمَّ غاب تاركًا إياي وراء ظهره. اعتدلتُ في جلستي. نفضتُ
 الترابَ والتَّبنَ عن كتفي وذراعي ووجهي. ضمنتُ ساقِي إلى صدري
 وأسندتُ جبيني بين رُكبتَي مؤمنًا بأن أزرق لا يكذب. رحتُ أرفضُ
 هامِسًا. حَمَامُ الدَّارِ لا يغيب. حَمَامُ الدَّارِ لا يغيب. ساعة مضت. أكثر
 رُبَّما. رفعتُ رأسي أُرهِفُ سمعي. صمتُ لا قِيلَ لي به. بصيرة! ناديتها
 بصوتٍ عالٍ وعادتُ الإصغاء أتحرى سماعَ صوتها تبصقُ في البهو
 أسفل سُلَّمِها.

عرزال

أفلتَ صُراخًا، وهو يركضُ كالمجنون، ضجَّتْ به شُقَّتُهُ. أسندَ
 ظهره إلى جدار الممر. قَرَّبَ كَفَّهُ الملتهبة إلى وجهه وقد تغصَّنَ
 جِلْدُها وتورَّم واحمرَّ. عاد إلى مطبخه يمضي صوبَ الثلاجة يعتصره
 ألم. دَسَّ كَفَّهُ في كيسِ الثلج وأغمضَ عينيه. أمضى نصفَ ساعة
 على حاله هذه قبل أن يتنبَّه إلى سَيْلِ الثلجِ يعبرُ ذراعه خيوطًا
 سائلة تتجمَّع في مرفقه وتقطرُ على قدمه الحافية. أطرق برأسه إلى
 الأرض. بركة من الماء تكوَّنت أسفلَ قدميه فوق البلاط الأزرق.
 سحبَ كَفَّهُ من الثلاجة تاركًا نتفَ جلدٍ ميتٍ بين قطع الثلج. فطِنَ
 للمرَّة الأولى إلى لونِ أرضية مطبخه. ألقى يمدُّ كَفَّهُ اليُسرى يُغَطِّسُ

رؤوس أصابعه في الماء. جلس على رُكْبَتَيْهِ. مالَ برأسه يُدْنِيهِ إِلَى سَيْلِ الثَّلْجِ عَلَى الْأَرْضِ. أَحَاطَ فَمُهُ بِكَفَيْهِ وَهُوَ يَهْمِسُ. رَحَّالٌ.. زِينَةٌ.. أَنَا.. أَنَا آسَفُ.

«ضَجِيجُ الصَّمْتِ»

صَمْتُ مُزْعِجٍ. لَيْسَ لِلصَّمْتِ اقْتِرَانٌ بِالْهَدْوِ، الصَّمْتُ مُحَضٌّ مَوْتٍ، وَالْمَوْتُ فَقْدٌ. أَنَا أَكْرَهُ الْفَقْدَ. رَحْتُ أَحْصِي الثَّوَانِي فِي سِرِّي يُسَابِقُهَا وَجِيبُ قَلْبِي. عَشْرٌ. عَشْرُونَ. ثَلَاثُونَ. دَقِيقَةٌ. اثْنَتَانِ. ثَلَاثٌ. الصَّمْتُ يُطَوِّقُ كُلَّ شَيْءٍ عَلَى غَيْرِ عَادَةٍ. دَاهَمَنِي قَلْقٌ أَعْرَفْتُ مَصْدَرَهُ. كَيْفَ لِلدَّقَائِقِ أَنْ تَمْضِيَ هَكَذَا مِنْ دُونِ ذَلِكَ الصَّوْتِ؟ أَطْلُقَ دِيكَ الْحَبَشِ صَبِيحَتَهُ الْمَجْنُونَةِ كَأَنَّمَا تَسْرَبُ إِلَيْهِ قَلْقِي، يَدْفَعُنِي لِأَسْرَعِ وَأُطْمَئِنَّ عَلَى الْعَجُوزِ فِي الْبَهْوِ أَسْفَلَ سُلَّمِهَا. أَخْرَسَتْهُ بِإِشَارَةٍ مِنْ يَدِي. مِلْتُ بِرَأْسِي أَصْفِي عِلَّ صَوْتًا يَنْسَلُّ مِنَ الْبَابِ الْمُفْضِي إِلَى الْبَهْوِ، لَكِنِ الْبَهْوُ كَانَ أَبْكُمْ عَلَى نَحْوِ مُرِيبٍ. اسْتَقَمْتُ وَاقِفًا أَجْرًا نَقَلَ خَطَوَاتِي خَارِجَ حَوْشِ الْغَنَمِ مُتَحَرِّيًا مُرْتَابًا.

عِرْزَال

تَسَارَعَتْ أَنْفَاسُهُ وَقَدْ بَدَأَ مِثْلَ مَجْنُونٍ يَنْتَظِرُ مُجِيبًا مِنْ بُقْعَةِ الْمَاءِ عَلَى الْأَرْضِ. اسْتَقَامَ وَاقِفًا شَاحِبَ الْوَجْهِ لَاهِيًا. أَرْسَلَ نَظْرَهُ يَحْدُجُ السَّقْفَ غَاضِبًا. حَسَنٌ! أَسْرَ لِنَفْسِهِ قَبْلَ أَنْ يُسْرَعَ الْخَطْوُ إِلَى خَزَانَةِ الْمَمَرِّ يَفْتَحُ بَابَهَا الْخَشَبِيَّ بِقُوَّةٍ، غَيْرَ مَكْتَرِثٍ لَوْخِزِ الْحَرُوقِ فِي كَفِّهِ. قِصْعَةٌ خَزَفِيَّةٌ وَقَعَتْ مِنَ الْخَزَانَةِ وَتَهَشَّمَتْ. تَجَاهَلَهَا. تَنَاولَ بِنَدَقِيَّةٍ

صيدٍ هوائية. مسح عنها الغبار بكُمٍ منامته. طوى سَبَطانَها. نفخَ فيها. ألقَمَها طَلْقَةً ثم هرعَ إلى غرفةِ نومه. أطلَّ برأسه مُحترِسًا لئلا تلمحه فيروز وقد آتت لتوها إلى دُكَّةِ النافذةِ المفتوحة. تقدَّم على رؤوس أصابعه مُصَوَّبًا بندقيته إلى الحمامةِ الأم. هذه الحمامة غير جديرة بالحياة! ضغط الرئادَ بسبَابِيةٍ ترتعش. أخطأها. فرَّت هاربة. أفلتَ البندقية على الأرض ومضى إلى النافذةِ مَادًّا ذِرَاعِيه أمامه مثل أعمى يتحسَّس دربَةً. التصقت الحمامتان ببعضهما على حافةِ الدُّكَّة. اقتربت يداه إليهما. زينة. رَحَّال! كاد يُمَسِّك بهما لولا أن صَفَقا بأجنحتهما الهواء وأخذَا يُحَلِّقان باضطراب. بهت الكهل وهو ينظر إليهما وقد حطَّتا على سَعْفَةِ النخلة التي صارت تهتز. انتفض. أطبقَ كَفَّيه على إطارِ النافذةِ يدفعُ جسده لولوجها. حَطَّ بِقَدَمَيْهِ على الدُّكَّة ووقف مُنحني السَّاقَيْنِ يرتعش. لَوَّحَ بيديه منادياً باسميهما يتوسَّلُهُما. لا تذهبا! ولكن الحمامتين لم تستقرَّا طويلاً على السَّعْفَةِ المضطربة. أطلَقتا أجنحتَهُما للريح فيما ظلَّ الرجل وإِقْفًا بساقيهِ المُقْوَسَتَيْنِ مُشرَّتب العُنُق يُرْسِل نظره وراءهما.

«حمامُ الدَّارِ يغيب»

كنتُ مؤمناً بأن بصيرة لا تغيب، غابت حمامتاَيَّ الأثيرتان، غابت أُمِّي، وبقيت هي على قيد موتٍ مؤجَّل. ماتت بصيرة أسفل السَّلَم وقتَ فقدِ معزتي الأثيرة. ذهبت مثلما جاءت هادئة ساكنة. تلك التي لم أتَبَيَّن وجودها، رغم أنها موجودة مثل شيءٍ أكيد، كانت وقتَ غيابِ زينة ورَحَّال وأُمِّي تُبَنِّي إيماناً بعودة الغائب، ورحلت حامِلة

في مزودها وعودًا كاذبةً يومَ رحيل قُطنة. ما كنتُ لأنتبه إلى موتها لولا افتقادي حشرجات صدرها، ذلك الصَّوت المدموغ في ذاكرة البيت. خرجتُ ثَقِيلَ الخُطى من حَوْشِ الغَنَمِ مَفْجوعًا بخلوه من صاحِبتي. وجدتُ العجوزَ فاغرةَ الفمِ تحدِّقُ إلى السَّقْفِ وقصعة البُصاقِ إلى جوارها فارغة من مُخاطِ صدرها.

مكثتُ أياها أسفل السَّلَمِ أضْمُ رُكْبَتَيَّ إلى صدري. أَسْنَدُ إِلَيْهِمَا جِيبِي. أُمَتِّي نفسي بعودةٍ بصيرة إذا ما رفعتُ رأسي أجدها، تُثَبِّت لي صِدْقَ قولها بشأن حمام الدَّار، ولكن صاحبة القول لم تُعِدْ لأَصْدَق، أو لأسألها عن عودة قُطنة وتكذيب حكاية التَّيسِ الغريب. اقترَب مني والدي. انحنى بجذعه بسألني بين ريبةٍ وقلق. عِرْزال! لك أيامٌ تمضي مُعْظَمُ الوَقْتِ أَسْفَلَ السَّلَمِ، ما باللك؟ رفعتُ جِيبِي عن رُكْبَتِي أَنْظُرُ فِي وَجْهِهِ. كان مُضْطَرِب الملامح لا يُخْفِي قَلَقًا على غير عادة. لم أَقَوْ على إمساكِ رِيشَةِ شَفَتِي. أَشْتاقُ بِصِيرة. قُلْتُ لَهُ. مَطَّ شَفَتِيهِ رَافِعًا حَاجِبِيهِ يُعْلِقُ فِي وَجْهِهِ وَمَسْحَةً حُزْنٍ لَمْ أَعْهَدْهَا عَلَى وَجْهِهِ. بِصِيرة؟ قَطَّبَ حَاجِبِيهِ. أَلَصِقَ ظَاهِرَ كَفِّهِ عَلَى جِيبِي بِنَحْسُ حَرَارَتِي. بِصِيرة مَنْ؟ لَمْ أَجِرْ جَوَابًا. رَحْتُ أَطُوفُ بِبَصْرِي عَلَى الرِّكْنِ الضَّيِّقِ حَوْلِي لَعَلَّهُ يَفْهَم. هَزَّ رَأْسَهُ آسِفًا. مَضَى نَحْوَ الْبَابِ يَهْمُ بِالْخُرُوجِ. أَنْتَ تَتَوَهَّمُ أَشْيَاءَ غَرِيبَةٍ عِرْزال! لَمْ أَفَكَّرْ أَنْ أَصْرُخَ بِهِ أَتْهَمُهُ بِالْكَذِبِ، لَيْسَ خَشْيَةٌ صَفْعَةً يُفْلِتُهَا غَضَبُهُ، وَلَا تَحَاشِيًا لِقَوْلِهِ الْمُحْتَمَلِ؛ أَزْرُقُ لَا يَكْذِبُ، إِنَّمَا لِأَنِّي صَرْتُ مُؤَمَّنًا بِأَنْ أَزْرُقُ لَا يَكْذِبُ، وَأَنْ بِصِيرةِ النِّبِيِّ قَالَتْ إِنَّ حَمَامَ الدَّارِ لَا يَغِيبُ، لَمْ تَصْدُقْ، وَغَابَتْ هِيَ بَعْدَ حَمَامِ الدَّارِ! حَتَّى عِنْدَمَا لَمَحْتُ حَمَامَةً شَاخِصَةً الْعَيْنَيْنِ مَرِيضَةً لَا تُشَبِّهُ زِينَةَ فَوْقَ قَفْصِ

الحمامة الأم، يُطَوَّقُ إحدى قائمتيها جِعلَ وردِي، رفضتُ التصديق بأن مُلتوية الرقبة، تلك الكسيحة، هي زينة أخت رَحَّال، وقد أصابها صَرَخُ الحمام، هذه ليست حمامتي الأثيرة التي تاهت مع شقيقها في زُرْقَة صحراء الجنوب. من تُغَيِّب الزُّرْقَة لا يعود.

عرزال

غابت الحمامتان عن نظره في زُرْقَة السَّماء. خَلَّتْ دَكَّتُهُ من كائناتِه الوديعَة. شُلَّ صَوْتُهُ لم يُعَد قَادِرًا على مناداة من آمن بأنهما زينة ورَحَّال. أزاح قَدَميه ببطءٍ إلى حافة الدُّكَّة. ألصقَ ساقيه ببعضهما. فتحَ ذراعيه مُنَحْنِي الظهرِ فيما يُشْبِهُ وقفةَ استعداد غطَّاسٍ يهْمُ بالقفز. أغمضَ عينيه ثُمَّ..

بقي ساعاتٍ على حاله تلك.. ثُمَّ..

* * *

أثناء ساعة تأمل

لتحميل المزيد من الكتب الحصرية والرائعة

زوروا موقع جديد بديف

www.jadidpdf.com

www.jadidpdf.com

قُطْنَة

أغمضَ عينه التي ترى كلَّ شيء. أوغل في تأمله يستحضرُ بعضنا، واحدًا تلوَ آخر. يُقلِّبنا في رأسه ويعيدُ تكويننا. يلعبُ دورًا لا يُجيده. يلعبُ دورَ إلهٍ في أسطورةٍ قديمة.

كنتُ عالقةً فيما يُشبه العدم قبل أن يستحضرنا مؤلِّفنا ساعة تأمله. مؤلِّفنا ومالك أمرنا وسقفنا الآمن إن هو أحبنا. له المجدُ الأدبيُّ عددُ مؤلِّفاته وما حملتُ من حروفٍ وكلمات. نُداهنه ونتوسَّلُ رضاهُ ولا نستغزُّه لئلا يكتبَ لنا نهايةً بانسة. مؤلِّفنا موجدنا القوي الضعيف الصَّامت المتورِّط الدائم في صنعه. يجيءُ بنا من عدم، يقتلُ فائضَ وقته برسم أقدارنا. ينالُ مجداً وشهرة. ينالُ سُمُوًا يليقُ ببهاء صنعه. مؤلِّفنا الحقيقُ بكلِّ مجدٍ إن داهمه مللٌ، عسى ألا يُداهمه، يتركنا حيارى في دائرةٍ مُفرغةٍ، في جحيم الدُّرج السُّفلي، نتخبَّطُ في صفحاته الناقصةِ على غير هدى. كم من مخطوطٍ لم يُنجز بسببِ عصيان شخصياته وتمرُّدها على مصائر قدرها لها. كم من لوحةٍ خانته ألوانها بما لا يروم قوله رسمًا. صار مصيرها الدُّرج السُّفلي المظلم في مكتبه. أيُّ مصيرٍ أسوأ من أن يتخلَّى عنك كاتبك، يدفع بك إلى ظلام الدُّرج مُعلِّقًا بلا نهاية؟

مِلْتُ بين يديه في ساعة تأمله. ساعة استثنائيةٍ نادرًا ما تجيء

تمنحنا فرصة أن نقول، وإن بحذر. ساعةً تقترب فيها منه على غير عادة. في ساعة تأمله يحقُّ لنا ما لا يحقُّ في وقت الكتابة. ساعة بُشِّرنا بها كثيرًا، أعيشها للمرَّة الأولى. مثلتُ أمامه طائعةً مُستسلمة وقت عصته الشخصية الضَّعيفة عِرزال ولم تُلبِّ نداءه ساعة التأمل. أخفق في فهم شخصية ابتكرها. من تكون؟ ومن أين جاءت؟ كيف ولماذا؟ كنتُ في زاوية البيت العربي إياه، ذلك الذي أوجده صاحب النص. أنث المكان بكلِّ تفاصيله وحضر صامتًا ينطق وِقارًا رغم حضوره بثياب رمادية تبدو ثياب نوم. مرَّ نظره على المكان من حوله كأنما يتحقَّق من دقَّة وصف جاء في أوراقه. نظرَ إلى قدير معدنية فوق متقلة الفحم. رفع كفاً ملفوفة بضَّادة طيبة أمام وجهه يتملَّى في باطنها وظهرها، ثُمَّ ناء ببصره عن القدير. تابع السَّير في البهو القديم غير المسقف. البثر في الوسط. الصورة العائلية على الجدار تضمُّ زوجين وأبناءهم الأربعة. الأرائك الأرضية والمساند ومفارش الحصر والصُّندوق الخشبي الأسود المطَّعم بنقوش ذهبية، كلُّ الأشياء في مكانها. راح يتحرَّك في المكان يُغيِّر تفاصيله. يُحيل أبواب الألمنيوم إلى أبواب خشبية. يبدو الخشب ملانما أكثر. يوجد صندوقاً حديدياً عوضاً عن الخشبي. للزَّمن اشتراطاته! يصمت قليلاً قبل أن يُردف مخاطباً نفسه. ولما تُمليه عليَّ الذَّاكرة!

تقدَّم بضع خطواتٍ إلى أسفل السُّلم ينحني على بصيرة. خلَّف انحناءه وقعاً مربكاً في نفسي انحنى له كلُّ ما فيَّ. مرَّ كفُّه أمام وجه العجوز. تهلَّل وجه بصيرة وغشني وجهها الباسم دمعاً غزيراً. هذا أنت؟ تأخرت كثيراً! قالت بصوتها الضَّعيف. وهنتُ حتَّى مُتُّ.

تركت الفتى. لم يعد لي مكان هنا فقد استحوذ أزرق على كل شيء.
 دنوث من البشر القديمة وراء ظهره أصيخ السمع. أنصت إلى
 حوار هامس بين مؤلفنا والعجوز الباسمة الحزينة. مؤلفنا دام حرفه
 واتسع خياله يحدثها وتجييه عن كل سؤال، تمنحه فهما للنص.
 التفتت العجوز إلى السلم تزامنًا مع نزول أزرق من السطح. أدار
 مؤلفنا وجهه تجاوبًا مع التفاتة بصيرة. بدا أزرق كما لو أنه لا يرى
 بهاء الكاتب وهالته التي تشع في بهو بيته. هو في الحقيقة لا يرى
 سواي. بحلفت فيه بصيرة قبل أن تستجمع نخام صدرها. خخخ
 نف! اهتز الكاتب ضحكًا ارتجفت له أركان البيت. مضى أزرق نحو
 البشر يحدجني بنظرة مقية، في حين كنت أبحلقُ مُرتبكةً نحو المؤلف
 والعجوز. التفت نحوهما صوب السلم. أعاد النظر إليّ يستغرب
 ارتباكى وشخوص عيني نحو أسفل السلم. لم ير أحدًا. أرخى جبل
 البشر يزعب من مائها. غطس كفّه في الدلو قبل أن يقربها إلى فيه
 يتذوق. بصق الماء. مالح! أسند كفّه إلى سطح البشر محدثًا نفسه.
 مياه المذا! أزرق البغيض يوجد لكل شيء سببًا. هو لا يؤمن مثلنا
 بمزاج البشر القديمة؛ يجيء ماؤها عذبًا بشير خير مُقبل، يجيء مالحًا
 نذير شؤم. يعزو صاحب البيت مزاج البشر إلى مياه البحر قرب بيته؛
 تُقبذ في أويتها مذا مياه البشر!

التفت مؤلفنا إلى صاحب البيت يصيح به. يا أزرق! لكن أزرق
 مضى إلى السلم يمسح ملوحة شفته بكُم ثوبه من دون التفات.
 كنت مطرقة مُترددة وقت قطب مؤلفنا حاجبيه. نظر إليّ شاخصًا.
 متم: ممم — هذه أنت يا قطنة! هزرت رأسي. حدثني عنك وعمًا

يجري هنا. أجفَلْتُ. أنا؟! فرَّ صوتي. ابتلعتُ ريقِي قبل أن أردف. كيف لي أن أعرف ما لا تعرف؟ هز رأسه. مضى صوب مدخل حوش الغنم. كمش بكفه أعواد برسيم من كومة على الأرض. اقترب مني يرمي البرسيم على الأرض أمامي. واصلت حديثي. أنا لا أعرف عني إلا ما كتبتَ يذكُ مانحة الحياة كاتبة النهاية. تفكَّر مؤلَّفنا وقد استحسن ردِّي. هذا جيد، معزةٌ خلوة! رفع حاجبيه كأنه تنبَّه إلى شيء أغفله. ردَّد الكلمة كأنما يستطيع حلاوتها. خلوة.. قُطنة خلوة. يبدو أنه تلقَّف فكرةً في ساعة التأمل هذه. فكرةٌ لعلها تدفعه لإنجاز ما كُتِبَ وحماية النص من مصير المخطوطات الملعونة في حجيم الدُّرج السُّفلي.

أنتِ لستِ معزةٌ بربريةٌ بيضاء في حوش الغنم كما يزعمُ عززال. هذا ما يزوِّره الكهل في مذكَراته، وهذا ما يُعرفُ سِرَّ النص. كنتِ أنصِتُ إليه مُطِرقة. أنتِ بيضاء، بيضاء كالقطن يا قُطنة ولكنكِ لستِ معزة. حكَّ صلعتَه قبل أن يستطرد. ممم.. هذا جديدٌ يمنحني مساحةً أبني فيها جسرًا يعبرُ بي إلى الصفحة التالية. أخذ يذرُع بهو البيت جيئةً وذهابًا يشبكُ أصابعَ كَفِّهِ وراء ظهره. فلنقل إنكِ أخته. أخت عززال. الوحيدة في ذلك البيت العربي القديم التي تنصتُ إلى أحاديثه وقت الضَّجر. ولسبب ما كتبكِ في مذكَراته معزةٌ بربرية. ماذا يكون السبب؟ صمتٌ قبل أن يتدارك. لا! لقد منحتِ عززال أكثر من الإنصات في حوش الغنم وهذا لا يليقُ بأختِ أكتُبها وفق نواميس كتابتي! أنتِ ابنة عمِّه أو ابنة خاله الأثيرة. لا! تردَّد قبل أن يقول. أنتِ ابنة «العبد»، و«عبد» بطبيعة الحال. تخضَّلت عيناؤه على نحوٍ مُفاجئٍ كأنما أخذته خيالاته إلى فاجعةٍ قديمة. طأطأ يُمرُّ ظهرُ إصبعه أسفل

عينيه. رفع رأسه ينظر صوبي لكنه بدا وكأنه لا يراني. خليطُ حزن وسعادة خجلى بدت على وجهه الباسم. قُطنة يتيمة الأب، «العبدة»، التي تكبر عِرزال بعشر سنواتٍ والتي تسكن في عشية ضيقة في حوش الغنم. قُطنة التي تزوجت من رجلٍ غريبٍ أخذها بعيداً. انفجر مؤلفنا، كثر قُرأؤه وأصابت معانيه، يصرخ وقد تصاعدت دماؤه إلى وجهه كأنما تذكر أحداثاً بعيدة. للمرة الألف؛ صدق أزرق، معزة الدار تُحبّ الثيس الغريب! عادت ابتسامته فجأة. ولكنكِ لستِ معزة!

تنهد مؤلفنا موهلاً في تأمله غائراً في الصمت. بدا حزيناً وهو ينظر إليّ بامعان. أخذ يقلّبني ويُعيد تشكيلي في رأسه. بيضاء البشرة مُجعدٌ شعري كستنائي اللون. واسعة عيناىٍ دعجاوان كشأ الرُموش. دقيقة الأنفِ والشفتين. منحوتة الخصر مستديرة العجيزة. ناهدٌ بفستان مشجّر ضيق أعلاه يتسع مع انحناء الخصر نزولاً ينتهي عند حدّ الركبتين. مكث في مكانه مُبعداً صدره إلى الوراء يُحدّق في صنعه كأنما ينقصني شيء يُكمل صورة يعرفها. لطّخ باطن كفيّ وقدميّ بالجَناء، ثم تراجع عن دقة الشفتين ومنحهما اكتنازاً وخمرة تميل إلى البني. أخذ يُصوّرني في مواضع عدة على الأرض؛ بين العُشة ولوح الصفيح في حوش الغنم، مُستليمة بضجة عِرزال في غفلة من أزرق، على أعواد التين اليابس نسبح في عزقٍ نكتشف أنفسنا بدهشة أولى، ورعشة ليس الخوف مصدرها.

أعادني مؤلفي ماثلة أمامه، في غرفة مكتبه، كأنه أتم رسمه لما هو مُقبل. هذه قُطنة التي أعرف. اذهبي واستنظقي عِرزال! قال بدهاء. شغلّنتي تفاصيل غرفة المكتب عن أمره. شدّنتي لوحاتٍ غصّت بها

الجدران؛ رسومات باهتة اللون لشخصيات شائبة الوجوه جاحظة العيون، حمام وأطفال وسماء وبحر، عُرفت ضيقة بلا أبواب، نوافذ تطل من ورائها حمامات دميمة، ورجل مربوطة أطرافه بخيوط موصولة بالسقف. مزر المؤلف كفه مبسوطة أمام وجهي. هل سمعت ما أقول؟ اذهبي للكهل قُطنة. استدرت مُطأطئة أمضي نحو وجهه قديمة. أردف مُتَبَّها وهو يدري بِنيتي زيارة عِرزال في حوش الغنم صبيًا طيغًا لئلا يُمانح الحديث. استنطقه كهلاً. لا حاجة لي به صبيًا غرًا ليس لديه ما يقول! أخفض صوتي كأنما يُحدث نفسه. امنحيه فرصة أن يراك في وقت يحتاجك فيه، ليريك كيف صار، وكيف كان يتمنى لو أنك أم توأميه. نفَض رأسه كأنه يطرد أفكاره. أرسل إلي نظرة فاحصة مشطت جسدي. خذي منه كل شيء ولا تمنحيه أي شيء. هو أقسم لزوجته أن لا امرأة بعدها. اكتفي بكونك امرأة قبلها. كنت أنصت ولا أدرك لقوله معنى. اسأليه قُطنة؛ لماذا لم يلق بنفسه من النافذة؟

صار يُعَلِّي عليّ دوري المقبل:

اسمعي ما أقوله قُطنة. سوف أحملك إلى سُقَّتِي الباردة. يكون عِرزال على حاله ساعة تركته على دكة النافذة، مُطبّق الخفنين، وقد أمضى ساعات فاتحًا ذراعيه مُتَتَصِبًا، مثل صليب. هاجس يُخَالِف رغبته في الحياة يدفعه إلى القفز من النافذة. هذا الهاجس هو أنا. كاتب النص. لن يكون عِرزال قد فهم ما يجري له وما يدور حوله، يتساءل: ولكن عدم الفهم وحده ليس مُسوِّغًا لإنهاء حياتي على هذا النحو. لو أنني فهمتها لربما أموتُ بغير اكتراث!

سوف يتنبّه إلى رنين جرس الباب، كأنما الجرس يتواطأ مع رغبته بعدم الموت على هذا النحو حين أخذ يرُنُّ بِالْحاح. يُعاوِد عِرْزال عبورَ نافذته دخولاً إلى الغرفة. يُزعجه ما يجهل فيها؛ نافذة خالية من ستارةٍ أسقطها صغيران لا يدري متى وُلدا أو إلى أين غابا، هاتِفَه المهمَل الذي يجيء بصوت طليقةٍ لا يتذكر زواجه منها، دفتر المذكراتِ وبنّدية صيدٍ هوائيةٍ مُلقاةٍ على الأرض. سوف يوصدُ النافذة ويُسند ظهره إلى زُجاجها. لن يُمهله رنينُ الجرس لحظةً يلتقطُ أنفاسه. يُسرّع الخطى إلى الباب. مَنْ هناك؟ يفتحه. فتاةٌ تشعُّ جمالاً وفتنة تُبدّد ظلمة الممر بحضورها. تلك أنتِ كما يراك. تهبطين بنظركِ إليه وقد كنتِ تنظرين إلى سقف الممر. إليّ. بهمٌ يسألكِ عن حاجتكِ. تُبادرين: أيمكنني الدخول عِرْزال؟ يبهت. يتراجع خطوتين. يُهمهم: غرابةٌ تلوّ غرابية تدحضُ أيّ فكرة تُمنطق وجودي لن تملكي إزاء تأخره في الرّد إلا أن تُعرّفه بنفسك: أنا قُطنة. يُبعدُ نظره عن وجهكِ ينظرُ جانِبًا إلى دفتر المذكرات. يحدثُ نفسه: أظنني أتذكرُ شيئاً بشأن الاسم. أتذكرُه قراءةً. يُعاوِد النظر إليك. أنتِ لا تبدّين بالصورة التي قرأها في مُذكراته. تبتسمين مُتردّدة: عيد ميلاد سعيد. يرفعُ حاجبيه استفهامًا ولا يزد.

يفتحُ الباب على اتساعه يدعوكِ للدخول. تسبقينه إلى غرفة الجلوس كأنكِ تعرفين المكان جيّدًا فيما يُلقِي إليك بسؤاله وهو يوصدُ الباب. أهو يومُ ميلادي؟ تنظرين إليه من وراء كَتِفكِ وأنتِ تمضين نحو الأريكة بابتسامة. نعم، أتممت الخمسين اليوم. يمتطُ شَفَتَيْه. حسنٌ.. يبدو الأمر مُمتعًا. يُشيرُ لكِ يَأْذُن بالجلوس كأنما

تهتمين لإذنيه. تجلسين. أخشى ألا يكون الوقت مناسباً، تبدو مشغولاً. يهز رأسه يدفعك للحديث. لا أذكر أنني شغلت بشيء مفهوم اليوم أو أمس، كل شيء يجري على نحو غريب، حتى هذا اللقاء سوف أتذكره غداً ضبابياً شأن كل شيء مضي يوم أمس. سوف يجلس على مقعد أمامك، يُحدِّق في تفاصيل منحتك إياها. تبدين مثل ثمرة تتضوُّع أريجاً شهياً يكاد يُفلِّتها غصنٌ أثقل بغصارة نُضجها. شعرك النائر، عيناك الواسعتان ورموشك الكثَّة وأنفك الدقيق، عُنقك الطويل وصدرك الموشوم بشامات أربع، ثوبك الأبيض المشجر الضيق في أعلاه يخنق نهديك النافزين ويتسع نزولاً عند خاصرته كاشفاً عن ساقين ملساوين كالشمع. من منّا لا تُغريه صورة كهذه؟! سوف يُحدِّث نفسه: أنا لا أعرف تلك التي تبدو على معرفة جيّدة بي!

يطول صمتك وأنت تجولين بناظريك في المكان مُتفحّصة؛ غرفة الثوم والمطبخ والحمام. تلتكئين قبل أن تُفصي. شفتك بلا أبواب عدا هذا. تقولين وأنت تُشيرين صوب باب المدخل. وجدتها هكذا منذ أمس. يُجيئك. تنهضين. تحثين خطاك مُتهادية كأنما تتحققين من صحّة المكان. تتضوُّع غُرفة الجلوس برائحة ينثها جسدك؛ جناء وريحان. تمشين ببطء ثلقتين قدماً أمام أخرى بحذر، كأنما تسيرين على جبلٍ مُعلّق. تقفين في الممرّ أمام خزانته الخشبيّة العتيقة. لا تلتفتين إلى قصعة خزفية مُهشّمة تحت قدميك. تفتحين بابي الخزانة. تُحملقين في محتوياتها. تلمسين جديكتين معلّقتين في الباب من الداخل. تعبين بكيس شبكيّ يَغصُّ بكرات زجاجية. تمرّرين نظرك

بين قماطين، وردي وسماوي الرقعة، تتفحصين محتويات الخزانة؛ مصاصشي أطفال وحجلين؛ وردي وأزرق. تزيحين جرساً ذهبياً صغيراً، تتاولين منديلاً. تفكين عقده وتطمئين إلى وجود تذكاري قديم بلون شفتيك أهديته له. تطبقين باب الخزانة ثم تختفين في غرفة نومه. يتسلل صوتك عالياً. لا سِتارة لنافذتك! يرفع صوته يُجيبك. هل من الضروري أن أكرر إجابتي؟ ترددين. لا، لأنك وجدتها هكذا منذ أمس. فقلت ما يشبه ضحكة من أنفه. بدأت تفهمين. نجيبينه على الفور. وأنت؟ يجفل متسائلاً: إلام ترمي بسؤالها؟ أبدو وكأنني في لعبة لا أعرف قوانينها. يتردد قبل أن يسأل. أنا؟ ماذا بشأنني؟ تتحكمن بصوتك متنححة. متى ستفهم؟ يلوذ الجبان بصمته.

تمكين وقتاً غير قصير في غرفته، يتبعك يستطلع سبب بقائك صامتة هناك. يلفيك واقفة تسندين كفيك مبسوطتين على زجاج النافذة تنظرين إلى البعيد، كأنك أزرق بصورته الأنثوية يتحرى أوبة الزواجل. تميلين بجذعك تُديرين رأسك إليه. أين فيروز وصغيريها؟ بضئ ساعديه إلى صدره. تبدين وكأنك تعرفين كل شيء! تستديرين. تسندين ظهرك إلى النافذة. أنا لا أعرف، بيد أنني رأيت. تدفك ملامح حيرته لأن توضحي. ورأيت الذي رأى. تنظرين إلى الأرض وجلة. تلمحين بُندقية صيد هوائية إلى جوار قدمي عزال. تقولين بنبرة راجية. أنت لم تقتلها. يُطرق برأسه ينظر إلى البندقية. حاولت ولكن. تتقدمين نحو الطاولة الصغيرة، تتاولين كوب قهوته الفارغ منذ أمس. لم يُعد قهوتك اليوم! يرفع ذراعاً بين وجهه ووجهك. احترقت كفي اليوم بماء القهوة أثناء تحضيرها. يقول ثم ينفض رأسه

وقد تثبّه. آه نسيت أن أسأل! هل تشربين شيئاً؟ تومئين برأسك نافيةً وابتسامتك تدلّ على لا شيء. هذا غريب! تقولين وأنت تُحدّقين في آثار حروق كفه. يُواري كفه وراء ظهره. لا أدري ما الغريب الذي نعنين، الغرابة تُلَفُّ كلَّ شيء هنا منذ. تُقاطعينه. منذ أمس! يهزُّ رأسه يُوافقك. تجلسين على حافة سريرهِ. تقولين والريبة على وجهك. شخص آخر خرّقت كفه نهاراً أمس. تنظرين إلى رأسه ساهمة. لك صلعة تشبه صلعته بالمناسبة. تُمعنين النظر فيه كأنه يُذكركُ بشخصٍ ما. أنت تشبهه كثيراً. يقتعدُ عِرزال الكرسيّ الخشبي، تفصيلُ بينه وبينك طاولة الصّغيرة. يُحلقُ فيك ممتعضاً. أين الغرابة في أن يحرق أحدهم كفه؟! فليحترق هو والعالم كله! يتحدّث المَعْقُلُ عن العالم كأنه يعرف شيئاً عنه. تَسِيعُ حدّقتك. عِرزال تصيحين به. تُردفين. أنا أتحدّثُ عن أحدٍ يهْمُكُ أمره. تتداركين. أعني يهْمُهُ أمرُك. يُطلِقُ زفرةً طويلة يكادُ يتبعها بردٌ صارمٌ لولا محبة يقرؤها في ملامحك تلجّمه. بتفكّر في حدود وعيٍ منحته إياه: أنا لم أتعرف إلى أحدٍ يهْمُهُ أمري. في الحقيقة أنا لم أتعرف إلى أحدٍ بالمطلق! يسند ذراعِهِ إلى الطاولة. يدنو برأسه إليك. اسمعي! لا وقتَ لديّ لحلّ الأحمجيات! يُقلِّقه حُزنٌ يُغشي ملامحك بلونه على نحوٍ مُفاجئ. تنظرين إليه بعينين تكسوهُما لمعة حمراء. تبدين وكأنك طيبة جاءت لتخبرني بإصابتي بمرضٍ ما! يقول لك وتومئين برأسك نافيةً مُطمئنة. يُخيفُهُ صمّك، على أن كلاماً تُخفيه يبدو مُخيفاً أكثر من الصمّ عن قوله. أنا لستُ طيبة، ولحسن حظّك أنه لم يتليك بمرض. أنا جئتُ رسالةً لأعرف منك ما تريد ولأخبرك بما ينبغي عليك فعله.

تلقين كلماتك دفعة واحدة. يرتبك. يُسند ظهره إلى ظهر مقعده.
رسولة؟ أنا لا أريد شيئاً ثم من هذا الذي أرسلك إلي؟ تنظرين إلى
الأعلى من دون أن ترفعي رأسك. يرفع رأسه إلى السقف وقد بدا
شرخه أكثر اتساعاً من ذي قبل. أنا أنظر إليكما من هذا الشرخ. هو
يعرف شيئاً لا يريد معرفته. تهمسين. هو، سقفتنا الآمن، هو من
أرسلني. تبدين له مجنونة وهو لا يريد أن يكون فظاً معك. يحتد
صوته غصبا عن إرادته. أنا لا أفهم شيئاً في الحقيقة! تستفزك كلماته،
أو بالأحرى كلمته الأخيرة. تنهضين عن طرف السرير تدنين إليه. لا
يجوز لك أن تتحدث عن الحقيقة عِرزال! يهْمُ بالنهوض من مقعده.
تُسندين كَفْكَ إلى كتفه. تُجبرينه على الجلوس. ابقِ جالساً من
فضلك. تجلسين أرضاً على ركبتك. تنظرين في وجهه بشفقة كأنه
يموت بعد قليل. تُربِّكه نظرتك وأنت تهزّين رأسك آسفة. لا تنظر
إليّ هكذا! أنت لست حقيقياً عِرزال! سوف يُحلقُ فيك شاخِصاً.
تداهمه نوبة ضحك مجنونة. لا يتذكر أنه ضحك بهذا القدر في حياته
منذ أمس. تستمرُّ ضحكاته حتى تتوقّف مُخلفّة ابتسامة بلهاء على
شفته. لا تُبادلينه الضحك ضحكاً ولا ابتسامة. جامدة صليدة
تُحملقين في وجهه مُشفقة. يصيح بك. هذا يكفي! تمسكين بركبتيه
تعتصم بهما. تترقق أدمعك. تندفعين مُفضية. اسمعني أرجوك!
مثلاً قلت لك، ولكن اطمئن، أنت لست وحدك! تبسمين على نحوٍ
مُغاير وأنت تمسحين دموعك بظاهر كَفْكَ، ابتسامة ذات معنى هذه
المرّة؛ ابتسامة حُزنٍ مرير يشوبها قلقٌ شفيفٌ إزاء ردِّ فعلٍ مُحتملٍ من
عِرزال. أنا أيضاً لست حقيقية على أيِّ حال، كلانا، كلانا عِرزال

شخصية في رواية كتبها سقفنا الأعلى، مؤلفنا. احتار في أمرِكَ في اليوم الخامس في النص، وقتَ طال وقوفكَ على دَكَّةِ النافذة مُردِّداً غير قادر على القفز! لماذا عِرْزال؟ لماذا لم تقفز كما أَرادَ لك؟! يُنصت إلى إفضائِكَ وهو يحكُّ صلعتَه. أنا، أنا حقيقي كالشمس قُطنة! كصلعتني هذه التي ألمسها بأطرافِ أصابعي! تدفعُكَ إشارته إلى صلعتَه لأن تنتهِي. تُضَيِّقُ عَيْنِكَ تُمعِنُ النظر في ملامحه. هُوَ كَتَبَكَ على هَيَاتِهِ! يصرخُ بك. كفى! تستقيمين واقفةً تُمسِكِينَ بكتفيه تهزِّينه. عِرْزال افهم أَرجوك! يمضي نحو النافذة ينظرُ بعيداً وهو يفهم تمامَ الفهم ما تقولين وينكره. علَّمته المذكَرات أن أزرق البغيض على حقٍ دائماً، وإن خالَفَ كلامه ما يشتهي. تعلَّم ألا يثق ببصيرة التي أحبَّ قراءتها وهي تبيعُ وهما مُستحيلاً يطيبُ لَهُ تصديقه، بيدَ أنه يكره أن يقتنع بفكرة غريبة تُفسِّرُ غرائب الأشياء من حوله. دعيه يوغل في تفكيره ساهماً فيما وراء النافذة قُطنة. ذاكرة معطوبة لا تُسعفه لفهم كتاباتٍ مهورة بتوقيعه لا يتذكَّر زمنَ حدوثها، وخزانة ملأى بأشياء لا يفقه سبب وجودها. يُحدِّث نفسه ضَيِّقَ الصدر: هذه الفتاة تقول شيئاً أزرق. أزرق كالحقيقة التي لا يجب أن أتحدَّث عنها لأنني، وفق قولها، لستُ حقيقياً! يسألك مُستنكراً ووجهه شطر ما وراء النافذة. هل تؤمنين بما تقولين قُطنة؟! نحن حقيقيون! هُوَ.. هُوَ غير حقيقي، غير موجود! نحن من صنعه على هَيَاتنا! تُفلتين ضحكة تهكُّم. من اليسير جدًّا عليه أن يدفعَكَ إلى خارج شَقَّتِهِ. يطرُدُكَ ويُحذرك من العودة ثانية، لكنه يدري إن هُوَ فعل، فليس بمستطاعه نسيان ما قلت. تُداهمه رغبة بمعرفة المزيد، ليس مُهمًّا أن تكوني

على صواب، أو أن يكون كلامك منطقيًا، لا منطوق في هذا المكان في ساعة تأمل بين فكرة وتدوينها على الأوراق. لا شيء يهّمه، ذاكرته التي يشكُّ بها، وزمنه المبتور الذي يجهل آلية مرورهِ، وأحلامه الليلية التي عجزَ خياله عن تفسيرها، ومناكفته لتلك الحمامة التي لا يعرف سببًا لمحبتها ومقتها لها في آن واحد. لن يقوى عزّال على الالتفات نحوك وأنت تقفين وراءه. ماذا يريد مؤلفكم المزعوم مني؟ تُجيبينه مُستفزةً تُكرّر ما جاء في سؤاله. مؤلفكم؟! يودُّ أن يلتفت إليك ولكنه لا يريد لعينيه المخضلتين أن تُمعنا بفضح مشاعره أكثر. يَمْكُثُ يَحْدَقُ في الفراغ الأزرق يتحرّى إجابتك. يَلْفُكُ الضَّمْت. يُرْسِلُ نظره وراء امرأةٍ تحمِلُ رضيعًا تعبّرُ الشارع، رجل يمشي ضحبة كلبه على الرّصيف، وأطفال يصيحون ببائع مثلجات يلوخ في البعيد. يُشيرُ بذقنه نحو ناس الشارع. وأولئك؟ تُسندين كَفْكَ إلى كتفه. تهمسين عند أذنه. مؤلفنا كلنا، كاتبنا الذي رأى كلَّ شيء. سوف يرفع رأسه إلى السّقف يحدّجني بنظرة كارهة أدري. يصيح بي. هاي أنت! ترتعش كَفْكَ على كتفه. يُتِم. أن ترى كلَّ شيء لا يعني أنك تعرف أيَّ شيء ولا يعني أنك قادرٌ على فعل شيء! لا بأس قُطنة، هذا المغفل يقول أشياء حقيقية في بعض الأحيان. تضغطين على كتفه وتهمسين. عزّال احذرا! يستديرُ ينظرُ إلى وجهك. يرفع كَفّه اليسرى يلمسُ وجهك ويمسحُ بلبل وجنتيك. ألسبت تقولين إنه أرسلك ليُعرف ما ورائي؟ تهزّين رأسك مؤكدة. يسألك. ما باله لا يعرف؟! ادفعي كتفه برفقٍ قوديه إلى السّرير. اجلس عزّال. سوف ينصاعُ لك. اهمسي. أنت أسهل مما تصوّرت. ما دُمتَ تقبل الفكرة!

يرفع حاجبيه يستوضح. يُفضي لِدُخِيلَتِهِ: هذه الفتاة تُجيد الابتسام على نحوٍ مُحِبِّب. لا تُفَوِّتِي لحظة سَكِينَتِهِ. واصلي ما توقفتِ عنده. فكرة أن نكون كلُّنا؛ أنا وأنتِ عِرْزال والحمامة والناس الذين يطوفون الشَّارع في الأسفل، كُلُّنا لا نعدو كوننا وهما داخل نصٍّ لا أحد يدري عنه إلا كاتبه. تستدركين. كاتبنا. يشيخُ بوجهه صوب النافذة لا مهرب له من غزو حُجَجِكَ سواها. امسكي بذقنه بطرف أصابعك. أديري وجهه إليك. سوف يقع نظره على صدرِكَ يأخذه إلى صحو سماء قرأها، تجرّه شاماتك الأربع إلى زواجل أزرق تُحلّق مُبتعدة أو عائِدة، أو تأخذه إلى إخوة يفتقدُهم. تُحذي دفتر المذكرات من الطاولة القريبة واسنديه إلى فخذيه ثم اجلسي على رُكْبَتِكَ أرضًا. اطلبيه أن يتصفّح. اقرأ. يُجيبك. لا رغبة لي بقراءة ما أحفظ. يومئ لك رافضًا. كرّري. اقرأ عِرْزال. يدفعُ بالدِّفتر إليك غير راغب. تُطبّقين كَفْيِكَ على كَفْيِهِ تُبْقِينَ الدِّفتر مفتوحًا على فخذيه. اقرأ أرجوك وحاول أن تتذكر، ما الذي أردتَ قوله في مذكراتك هذه حتى لو لم تكن كاتبها؛ الحمام الزاجل وبصيرة وأزرق وفيروز وزينة ورخّال وكل شيء، اقرأ وساعدنا على الخلاص من مصير الدُّرج السُّفلي، عِرْزال! تذكر أرجوك واجعل لهذا النص الذي نعيشه نهاية! سوف تعتريه رعشةٌ يفشل في كبحها. ينظرُ إلى عينيك يستمدُّ ما يعينه على ضعفه. ربّتي على ساقيه. أخبريه. نحن في برزخ بين فكرة في رأسه وتدوينها بشكلٍ منقوصٍ على الورق. سوف يُمِسِّك الدِّفتر يتصفّح أوراقه كيفما اتفق. يقرأ فقرّة. يقفزُ إلى أخرى. يتجاوز صفحة. يُدرِك الأخيرة. يعود إلى الأولى، ثُمَّ الممتصف. أنا أحفظُ كلَّ هذا ولكنتي

لا أعرف ما الذي يعنيه ولماذا. سوف يصرخ. أنا لا أتذكر شيئاً.. أنا لم أكتب شيئاً.. لعلّه هو.. هو الذي فعل! هو الذي يرى كُلَّ شيء ولا يعرف أيَّ شيء وغير قادرٍ على فعل شيء! سوف تنظرين إلى السقفِ نظرةً سريعةً مُرتبكة. هذا صحيح، ولكن هل لك أن تهدأِ عِرزال؟ هذا جيد، جيدٌ جداً، دعنا نتفق على وجوده أولاً. يرفعُ وجهه إلى السقفِ الذي اتسعَ شرخه وأتخذَ شكلاً آخر؛ شكل ورقة شجر، عين أو رُبّما فم، العين القديمة الناضرة إلى بصيرة، الفم الصامتُ أبداً إلا عن قولٍ لا يفقهه سواها. يهبطُ نظرُ عِرزال إليك. يتراجعُ عن قوله إنني أنا، سقفكم، وراء ما كتب في الدفتر. هو لم يكتب شيئاً، هو غير موجود أصلاً! انهضي قُطنة عن الأرض واجلسي إلى جواره على السرير. انظري إليه. بمشطٍ ببصره سطورَ الدفتر المفتوح في حجره. ينتهذه مُستسلماً. أنا لا أتذكر. تومنين له مُتفهمة. لا تدخري وقتاً لإقناعه. هل تتذكر متى وكيف تنام كل ليلة؟ سوف ينظرُ إلى وسادته يُربكه سؤالك. عِرزال لا يريد أن يُجيب نفيًا يؤكدُ مزعمك. أنا أتذكر متى وكيف أصبحو كلَّ صباح. تضحكين بيأسٍ إزاء إجابة المتذاكبي. أنت تتهرب من إجابةٍ لستِ أحتاجُ إلى سماعها! أنت لا تتذكر نفسك كيف أو متى تذهب إلى السرير كل ليلة، لأنه لم يكتبك تنام، بل إنك لم تَرَ الغروب في حياتك ذات الأيام الخمسة عدا مرةً واحدةً يومَ أطفأت النور كي لا تُفزعَ فيروز! كوني صارمةً في حديثك قُطنة. واثقة. لك قُدرةٌ خارقة على إخراسه. تضطربُ عيناه مُعترفًا في نفسه: أنا بالفعل لا أتذكرُني أندسُ في سريرِ ليلاً يدفعك صمته لأن تستطردِي. أنت لا تتذكرُ إلا بضعة أيام مضت كلها يوم أمس، لأنك

لم تكن شيئاً قبل ذلك. يُمسكُ بدفتر المذكرات يلودُ به. يُلَوِّحُ بالدَفْتَرِ أمام وجهك. ولكنتي موجود هنا، كنتُ صغيراً، كل شيء مكتوب في هذه الأوراق! أسكتيه بسؤالك قُطنة. منذ متى؟ سوف يتلکأ مُحاولاً أن يُجيب وفق ما يرغب ولكنه لن يقوى على مُجاراة رغبته. يُجيبك بما يشبه اعترافاً. أمس. تُطرقين كأنما يُتبعك النظر إلى وجهه. افص له بكل شيء لحظة ضعفه. أنت لم تكن شيئاً قبل أمس عززال! افهم! تشيات في هذا النص الذي كُتب في اثني عشرة ساعة؛ نصفها أمس ونصفها الآخر اليوم. سوف يُطبِقُ فكّه كي لا يُجيبك زاعِفاً. يقول ضاعِطاً حروفه. غيبة! أنا وأنت فيروز وأزرق وبصيرة! ثم يعتصرُ ذاكرته يستحضرُ الأشياء والكائنات. أفعى الدار وحمامها وزينة ورحال والبيت العربي القديم وصحراء الجنوب والبحر وكل ما يجري وراء هذه النافذة كُتب في اثني عشرة ساعة! هه.. هذا غير حقيقي! تنهضين تُديرين له ظهركِ. لا داعي لأن أذكرك؛ أنت غير الحقيقي في هذا النص اللقيط! كنت سهلاً قبل قليل، صرت تُعقّد الأمور عززال! أنت مجرد شخصية ورقية لا تعدو كونها وهماً في رأس مؤلِّفنا، كُفَّ عن عنادكِ عززال! سوف يُجيبك. أدري ولكن! لا! هو مجرد وهم في رؤوسنا! ارفعي صوتك قُطنة. أجييه. هو من أوجدنا! يرفعُ صوته. نحن من أوجدناه! تستديرين تنظرين إليه مُبقية على صمتكِ تترقبينه. هاتي دليلاً واحداً على وجوده! سوف يُشير إلى رأسه مُردِفاً. خارج هذا الرأس! حاذري أن يُضعِفَكَ سؤاله الخبيث. أشيري بسبابتكِ نحو صدره. سوف أفعَل إن جئتني بدليل على أن ما هو مدوّن في مذكراتك نتيجة أحداثٍ مرتت بها حقاً!

اقتربي صوبه أكثر. عززال! ليس بالضرورة أن تكون ذكرياتنا نتيجة
لحدث كان! لاحظي ضعفه قُطنة. سوف بصمت صاغراً. بصرخ في
دخيلته. نحن ندور في دائرة مفرغة. حديثنا يبدأ من حيث ينتهي!
كأنما نتصتين إلى ما يجول في خاطره. تعجيبه. اطمئن، لم يحن أوان
التيه في الدائرة المفرغة بعد! ولكننا نمضي إلى هذا المصير حتماً إن
أصررت على عنادك! تيهك، أو بالأحرى تيهنا جميعاً سوف يكون
تيهاً أبدياً إذا ما لُفنا الظلام في الدُرج السفلي! سوف يفتعل ضحكة
يتوسل بها تبديد ارتباك. لا وجود لذلك الدُرج! يمتقع وجهك. أنت
تنكر! يجيئك مُتقياً كلماته بحذر. الإنكار وجه آخر للتسليم، إنكارك
وجود الشيء تسليم بعدم وجوده! أفلتي ضحكة ولا تُشعره بغیظك.
أنت تهذي! أشيري له نحو المقعد. اجلس عززال. تجلسين أمامه
على السرير ثانية وقد بدا أن صبرك يوشك على النفاد. لا تيأسي. أنا
معك قُطنة، أنا قريب. أخبريه. أنت أمام خيارين لا ثالث لهما؛ إما
أن تفقر من نافذتك هذه لتجعلنا نكمل النص من بعدك، أو أن
تُخبرني بمُرادك من وراء تمديد أجلك ومُخالفة قدرك، افعل شيئاً
لعلنا نمضي نحو صفحة جديدة. لن يُحير جواباً، فـ عززال لا يعرف
سبباً لإصراره على عدم الموت انتحاراً أو بغير انتحار عدا أنه يُريد
أن يبقى على قيد حياة لا يعرف لها معنى! يُريد أن يُدرك فهمًا لكل
أسئلته. مسكين عززال، لزامٌ عليه أن يهرب من فرضية الكاتب
والمكتوب هذه وإن كان إيمانه بها غافياً في داخله. سوف يقول.
قلت لي إن اسمك قُطنة! تومنين موافقة. يستطرد. كان لدي معرفة
بربرية بيضاء تحيل الاسم ذاته، اعتدت في طفولتي أن. قاطعيه قُطنة.

انسفي إيمانه بماضييه. طفولتك المزعومة في دفترِكَ عِرْزال! نحن الآن خارج النصِّ في ساعة تأملٍ مؤلِّفنا الذي منحنا فرصة أن نشاركه الكتابة! يصيحُ بكِ بكلِّ ما أوتي من غضب. يا لِسَخائِهِ ويا لِغِباءِ حِجَّتِكَ! وإن افترضتُ إيماني بوجوده يا. لا تمهليه يُكْمِل. أنت مؤمنٌ بوجوده ولكنك. سوف يُقَاطِعُكِ. أنتِ مُغفَّلةٌ تُشبهين بصيرة! سوف تضحكين. بصيرة من؟ يفترُّ عِرْزال أمام فائِضِ ثِقَتِكَ. يتلَكَّا يُجِيبُ بغير يقين. بصيرة العجوز السَّاكِنة أسفل السُّلَّم. تُجيبينه بما يُشبه عَنَّا. أنت تؤمن بوجودها إذن! يتفَضُّ كأنما يتبرأ من تُهمَةٍ. لا تهزِّين رأسكِ. صرتَ مثل أَرْق. يُجِيبُكِ. أَرْق لا يكذب! تبسمين تفتعلين هدوءًا. ولا أنا. ترفعين وجهكِ إلى السَّقْفِ تنظرين إلَيَّ بِأسف. تُطرقين قبل أن تستديري ماضية إلى خارج غرفته. حسن! أعودُ لِمَنْ أرسَلني خائبة أخبره بفشلِ مُهمَّتي! يصيحُ بكِ. صبرًا! تلتفتين إليه ودلالات الرضا على وجهكِ. يسألكِ وقد تملَّكتُهُ حاجتُهُ لبقائكِ. إن قلتُ لكِ إنني لا أملك حِجَّةً لوجوده أو عدمه، ولكن لا تطيبُ لي تلك الحياة التي ينبغي لي عيشها وفق شروطٍ من تدَّعون بأنه يكتبني! تهمسين مُتحرِّجة. لا تَكُنْ أناثيًا عِرْزال! يتفَضُّ يُجِيبُكِ مُتسائلًا. وهل الإيثار أن أكون قريبًا لراحةٍ باله واستمراركم من دوني في النصِّ الذي تزعمين؟ تهزِّين رأسكِ بحزن. أو أنك تُبرِّز لي سبب إصرارك على البقاء. يُجِيبُكِ بصوتٍ واثقٍ كأنما أَرْق يندسُّ في أحشائه يُرْسِلُ صوته عبر حنجرَةِ عِرْزال. اسمعي قُطنة! أنا أبُحِثُ عن معنى! يرفعُ رأسه ينظر إلى السَّقْفِ. يستطرد. معنى لِكُلِّ ما يجري هنا. على افتراض أن ما تقولينه بشأن ذلك الروائي صحيح، ماذا

تعرفين عنهم؟ تُكثِّرين آخر قوله مستفهمة. عنهم؟ يوضح عززال. الروائيون قُطنة. تُجيبين صاغرة. أنا لا أعرف، هم العارفون! صوت أزرق في داخل عززال يضحك. تتداركين. لا شأن لي بالروائيين الآخرين. أنا هنا رسالة ممن كتبتني؛ كاتبنا الذي وراء السقف مانح الحياة الذي يرى كُلَّ شيء. يومئ لك أسفاً. حسن، لو هو يراني قُطنة، هو لا يعرفني، لأنه يظن أنه أوجدني من عدم، أنا سأعرفه لأنه أوجدني على شاكلته! هل تفهمين؟! تُشيرين برأسك نافية. يواصل الوجدُ إفضاءه. هو لا يدري إنني هو. أنا أدري. تلتصقين به ترتعشين. إياك أن يفتعك بجنون أفكاره. تبَّهه. أنت تقول أشياء غريبة عززال! سوف يُحيطُ جسدك بذراعيه يهيمس بأذنك. الروائيون مرضى، يُفُسون عن معاناتهم ويستزيدون بالكتابة تعويضاً لنقص في نفوسهم! يُزيح ذراعيه عن جسدك. يُداهمك ضعفت قُطنة. لا بأس. ولكن احذري! تقولين له. هذا كثير عززال! يسألك. كثيرٌ بحقه؟ تُمسكين بقمّة رأسك تُجيبين. لا. هذا كثيرٌ بحق هذا الرأس! تنفضين رأسك مُزعجة. أنت تهذي مُجدداً. ادفعيه. حاولي الخروج. يُمسك الحقيزُ بذراعك الملساء. أي سُلطة تمنحُ كاتبكم المزعوم الحق بأن يكتبنا وفق ما يريد؟ تُفَلتين زفرةً طويلةً. تستديرين. تتقابلان وجهًا لوجه. أخيراً! كنتَ للتو تفتعل عدم إيمانك بدوره، ثم صرتَ تؤمن كارهاً يدفعك سخطك! تُطمئن شفتيك. قطعنا شوطاً ليس بالهين. نظرين إليه عاقدة حاجيك. ما بالك تُحملكُ بي هكذا؟ هو لا يزال ينتظر إجابة. يتجاوز قولك يُكرّر. أي سُلطة تمنحه أن يكتبنا وفق مزاجه؟ تنهَّدين قبل أن تُفضي صارخة. القلم! كأنما لطمته على وجهه

بكلمتيك وقتَ أجبت. سوف يستقيم الغيبي واقفاً ساهماً يذرُعُ غرفته جيئةً وذهاباً يُردّد. القلم. القلم. القلم. يقلبُ المكانَ يبحثُ عنه في درج الطاولة الصغيرة إلى جوارِ السرير. في خزانة الممر. على طاولة القهوة. لا شيء! أكدي له قُطنة. لن تجدهُ عزّال! سوف تبدو الشفقة في ملامحك أدري. يُربكُ قولك. يتحسّرُجُ صوتك. أنت لا تملكُ قلمًا واحدًا في شفتيك! سوف يُطبقُ قبضته على دفتر مُذكراته يرفعه أمام وجهك يُبرهن. تومئين له بحزن. لا داعي لأن نُعيد الحديث عزّال. أنت لم تكتبَ ماضيك قط. هو من فعل. سوف يرفعُ رأسه إلى السقفِ يصرخ. أريدُ قلمًا! تقترين مِنهُ تهمسين. اخفض صوتك! تدسّين أصابعك في صدرك. تُسّيع عيناه يسأل. ما زلتَ تحتفظين بالذّيرم في صدرك!؟ تعقدين حاجبيك استفهامًا. يُردفُ المسكين شارحًا. تلك القطعة النسيجية التي تُشبه القرفة. لا تُعيري قوله اهتمامًا قُطنة. اخرجي القلمَ من جيبِ صدرك وناوليه. سوف يسألك. من أين لك؟ تُسكتينه. لا تسأل! مثلك أنا لا أدري، في برزخنا هذا ساعة تأملُه لا قوانين لشيء، هو من أوجدَ القلمَ في هذه اللحظة لعلك تكتبُ في دفترِكَ ما فاتهُ أن يكتبهُ! السعادةُ التي سوف تغمرهُ على نحوٍ مُفاجئٍ تدفعهُ لأن يُحيطك بذراعيه يُعانقك. فليؤمّنهُ هو! بأي سوف أكتب غدي إذا ما أمنتُ أنا بأنه كتبَ أمسي. تتفحصين بين يديه. ماذا تفعل عزّال!؟ يلتقيمُ شفتيك كأنما يروي عطشًا لازمه منذ ما قبل أمس. وأنت. أنتِ يا قُطنة تدفعين صدرهُ بكفّيك قبل أن تستقري هادئة. حرارة أنفاسك تلفحُ وجههُ مثل سُموم صُيوف البيت القديم. يُقرّبُ وجههُ إلى سماء صدرك يلثمُ زواجل أزرق ومذاق

ريقك العذب في شفتيه. يُفْلِتُكَ الحَقِيرُ لاهِثًا. تُسْقِطِينَ نَفْسَكَ جالسةً على طرفِ السَّرِيرِ. عيناك مفتوحتان على اتساعيهما تحملقي في الكهل. ما جئتُ لهذا الشيءِ عِزْزال! يستجمعُ كلماته خلال أنفاسه المتسارعة. لعلَّ ما حدث هو الشيء الوحيد الذي أقدمتُ عليه بإرادتي مدركًا. تومنين عاقدةً حاجيتك تستوضحينه. يُجيبك السَّافِلُ. تقولين إنه يمنحني فرصة أن أفعل؟ أن أقول؟ أن أعينه على إنهاء هذا النص اللقيط الذي ولد بغير ما فكرة؟! تهزئين رأسك موافقةً تؤكدين. يُلَوِّحُ لك بالقلم. سوف أكتبُ نصًّا يُخالفُ نصَّه اللقيط، نصًّا نسيبًا، أنسبه إلى فكرةٍ لستِ تومنين بها. تُضَيِّقِينَ عَيْنَيْكَ تتحررين إضاحًا. إنها ثورة الشخصيات على مؤلفيها المفترضين! يجلسُ إلى جوارك على السَّرِيرِ. يُطَبِّقُ كَفَّهُ على كَفِّكَ المرتعشة. من فينا يكتبُ الآخر ويَقْنِيهِ؟! تطفُرُ دمعة من عينك وأنتِ تنظرين إليه صامته. لا تُصدِّقيه قُطنة. دعيه يهذي لعنا نَدْرِكُ نهايةَ لهذا النص. يُقَرِّبُ وجهه إلى وجهك يدفعه سطرُ قرأه ذاتَ صبحٍ من صباحاته الخمسة في أوراقِ دفتره. يلعقُ دمعتك برأسِ لسانه. أنتِ مثلِ بثرنا المجنونة في وسط البهو، تمنحين ريقًا عذبًا أو دمعًا مالِحًا بحسبِ مزاجك. تسري رعدةً في شفتيك. أنا لا أفهمُ شيئًا. يُجيبك. سوف تفهمين. تنهضين تهْمِينِ بالانصراف. أخشى أن تنتهي ساعة تأملِه. يُطَبِّقُ كَفَّهُ على ذراعك. لا قوانين للزمن في هذه الساعة شأن الزمن في أوراقِ يكتُبها. أو لستِ تقولين إن أحداث الأيام الخمسة التي مرَّت بي وكل ذاكرتي القديمة قد جرت في اثنتي عشرة ساعة؟! تهزئين رأسك توافقيته. يُلَوِّحُ بالقلم أمام وجهك. سوف أخلِّصُه من مُعاناته وأكتبُ ما عجزَ هو عن كتابته!

يُطَوِّقُكَ الْوَعْدُ بِذِرَاعَيْهِ. أَمْهَلِينِي اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَاعَةً! يَتَشَمَّمُ شِعْرَكَ.
يَلْتَمُّ عُنُقَكَ. يُطَبِّقُ قَبْضَتَهُ عَلَى يَاقَةِ ثَوْبِكَ الْوَاسِعَةِ. ادْفَعِيهِ بَعِيدًا قُطْنَةً.
سَوْفَ يَقُولُ. أَنَا لَا أَتَوَيَّ فَعَلَ شَيْءٌ. انْهَرِيهِ. انْظُرِي إِلَى السَّقْفِ
وَتَذَكَّرِي..

خُذِي مِنْهُ كُلَّ شَيْءٍ وَلَا تَمْنَحِيهِ أَيَّ شَيْءٍ!

عرزال

«ادفعني الباب»

صحّت بالفتاة الواقعة وراء الباب توشك أن تضغط زرّ الجرس. تأخّرت قبل أن تدفع الباب على مهل. أطلّت برأسها زائغة البصر تحمّلق فيّ وأنا وراء مكتبي جالس أسند ساقاً إلى ساق، وأدير قلماً بين أصابعي. عذراً! يبدو أنني في الـ. قاطعتها باسماً. لست في المكان الخطأ قطنة. قطّبت حاجبيها تستغرب معرفتي اسمها وأنا الذي لا أبداً على الصورة التي تعرف. راحت تتلفّت كأنها تتعرّف المكان، ولكن جذّة المكان قد ألجمتها. أشرت لها نحو مقعد أمام مكتبي. تفضلي. نظرت إلى السقف مثلكثة كأنما تستنجد بمن يُفسّر لها طارئاً غيّر حدثاً كان قد رُسم بعناية. تفضلي قطنة! كزرت. جرّت خطاها إلى المقعد أمامي. أنا عرزال، الرجل الذي جئت من أجل إقناعه بلعبة أنت نفسك لا تعرفين قوانينها! بهت الفتاة. ضيّقت عينيها تنفّس ملامحي. أمسكت بخصلة من شعري. أشيب، ولكن الشيب أفضل من الصّلع كما أظن! لم تبال. هبطت عيناها إلى كفي اليمنى تبحث عن آثار حروق. باعدت بين أصابعي أحركها. كفّ سليمة! انبرت تواصل تفحص المكان. كان ينبغي أن تكون على دكّة نافذتك ساعة دخولي! زفرت أجيئها. أحدهم سوف يكون.

دنوتُ بمقعدي إلى مكتبي. ربُّتُ على حزمة أوراقٍ على سطحه. هنا قصةُ مؤلِّفٍ فشلَ في الانتحار، هربَ من ماضيه بكتابةِ روايةٍ ظلَ لحياته البائسة. رفعتُ رأسها إلى السَّقفِ ثانية. طرقتُ سطحَ مكتبي بالقلمِ أُنْتَهَها. أنا السَّقفُ قُطْنة، أنا مؤلِّفُ أكتبُ قصةَ مؤلِّفٍ، وهذه ساعةُ تأملي، لا تهدري وقتك! أطرقتُ تحجبُ وجهها بكفِّها. هو شأنك إن ارتضيتَ أن تكوني شخصيةً ورقيةً كتبها أحدُهم. أنا لا يُرضيني هذا الهُراء. أزاحتُ كفِّها عن وجهها المصفرَّ كأنما فرَّت منه الدَّماء. أشرتُ بذقني نحو الأوراقِ على سطحِ مكتبي. من ارتضيتَ مؤلفًا سوف تتعرِّفه ها هنا! دعك من أحداث الصِّباحات الخمسة التي تعرفين، تجاوزيها إن أردتِ، هي صباحاته هو. اقري المذكرات التي أخفاها وحسب. ضربتُ الهواءَ أمامَ وجهي ضاحكًا إزاء صدمةٍ شلتُ ملامحها. أعرفُ أن مجيئك مُحمَّلٌ بكلامٍ كثير. لا داعي لِكُلِّ ما أُرسلتَ لقوله فأنا أعرفُه. مطَّتْ شَفَتَيْها وهي ترفعُ كفِّها وتهزُّ رأسها وقد أخرستها الدَّهشة. أردفتُ. أنا اخترتُ أن أكون أنا وفق ما أروم. كتبتُ نصًّا يخالفُ النصَّ اللقيط الذي تعرفين. حملتُ الأوراقَ بين يديّ أَقْرَبُها إليها. واصلتُ. هنا نصُّ نسيب، أنسبُه إلى فكرةٍ واضحةٍ المعالم. انسِ أمرَ المؤلِّفِ، بن أزرق، الحائرِ في نصِّه في العهدِ القديم، المصّرُّ على أمسه لأن حياته خالية من الأحداث بعد حادثة المرسى العظيمة قبل عشرين عامًا. قطَّبتُ حاجبيها. حادثة المرسى ١٩ أومات مؤكِّدًا. هذا ما سوف تتعرفين إليه في هذه الأوراق، قصةٌ جديدة في عهدٍ جديد. يحدثُ أن يكون المؤلِّفُ شخصيةً في رواية كتبها مؤلِّفٌ آخر. واصلتُ إزاء استغرابها. أنا من كتبه على هذا النحو؛ منوال بن

أزرق، يفتح الرواية بمشهد حيرته في مكتبه فجراً، يوم تعدى خمسينه بساعات، يشكو لزوجته مآزقه الكتابي وتمرّد إحدى شخصياته، هه! فلنقل إنه أنا. عقدت قُطنة حاجبيها تستفهم. استطردت. أنا عززال، ليس لي أب اسمه أزرق، وتجاوزت الخمسين منذ سنواتٍ بالمناسبة. لم أمهلها تنطق. ذلك الموتور منوال، المنسوب لأزرق، الذي كتبه مؤلفاً كاذباً حتى مقدّمته، يكتب فيها عن نفسه ما يشتهي، لم يجرؤ على الاعتراف بأنه انفصل عن منيرة، أو بالأحرى هي من قامت بتسريحه، منذ عشرين سنة! استدعاها في مقدّمة نصّه زوراً متخايلاً أمام قراء محتملين، يُحصى أعمالاً أدبيةً وسينمائيةً ومعارض تشكيلية لم يُقدّم على إنجازها قط! يدي لا تزال ممدودة إلى قُطنة بالأوراق التي كتبت. أنا كتبت على هذا النحو، مؤلّفت بالكاد بلغ الخمسين من عمره، عاش منها عشرين عاماً خالية من أي أحداث، حتى فاجأته ذات يوم حمامة! الحمامة التي حطت على دكة نافذته، كما لو أنها على خشبة مسرح، تؤدّي دوراً قام به قبل سنوات طوال. رأى ذاته من خلالها، ودفعته للانصراف عن كلّ شيء ليكتب نصّاً توّسل به مهرّباً، ولكن النصّ قاده إلى نفسه من دون أن يعلم رغم زور مقدّمته. هزّت قُطنة رأسها وقد احمرّت عيناها. أنا لا أفهم شيئاً.. عززال ومنوال! تلقّفت الأوراق من بين يدي. من.. من فينا الكاتب ومن فينا المكتوب؟! استقمّت واقفاً. استدرت أخرج من وراء مكتبي أنقدّم نحوها. أنا الكاتب الذي خطّ قصّة كاتب عاجز عن إتمام نصّه، منوال الجبان الذي أخفق في محاولة الانتحار، ثمّ شرع بكتابة فضيله، يتنكر لكلّ ما يكرهه في صفاته ويلصقه بشخصية يكتبها، لكنني أنا..

أنا الذي رأيتُ كُلَّ شيءٍ وأعرفُ كُلَّ شيءٍ. جلستُ على مقعدٍ أمامها محني الظهرِ أسندُ مرفقيَّ إلى رُكبتَي. ضمتُ الأوراقَ إلى صدرها واستقامت واقفةً شاحبة. أيمكنني الانصراف؟ هزرتُ رأسي أمنحها الإذن. أدارت لي ظهرها تسيّرُ شاردةً الذَّهنِ. التفتت تنظرُ إليَّ من وراء كَتِفِها عند عتبة الباب. وأنا؟ من أكون؟ أجبُّها من دون أن أنظر إليها. اقربي الأوراق التي في يديك، يُرضيك كونك ما جاء فيها؟ أو فاكثبي ما تشائين. مشيتُ نحوها. مددتُ لها كَفِّي بالقلم. ترددتُ قبل أن تتأوله بكفٍّ مُرتعشة وهي تقول: في الحقيقة.. قاطعتها واضعًا سبَّابتي على شفَّتيها الدَّاكتين. الحقيقة أنه لا توجد حقيقة. أطبقتُ قبضتي على قبضتها الممسكة بالقلم. هزّتُ رأسها مُتفهِّمة. دسَّتُ القلم بين نهديهما. تلفتت في المكان ثانيةً قبل أن تسأل. ومن يضمن لي أننا لسنا في ساعةٍ تأملِّه حتى الآن؟ من يضمن أن ما يجري في هذه اللحظة ليس فكرةً داخل رأسه في طريقها للتدوين؟ ضمنتُ ساعدي إلى صدري أجبُّها. لا أحداً

تحسَّستُ القلمَ المخفي في صدرها. سألت. ماذا لو فشلتُ بكتابة ما أريد؟ نظرتُ إلى السَّقْفِ الخالي من الشُّروخ. إن كان يُرضيك دورُ الرُّسولة؛ اذهبي إلى شقَّة منوال، دُفِّي جرس بابي، ادخلي وأخبريه بأنه مجرد شخصية مؤلِّف ورقيَّة كتبها مؤلِّف آخر. حاولي أن تقنعيه لأن يُنهي هذا المخطوط انتحارًا، تجنبًا لمصير الدُّرج السُّفلي. أطرقت تمضي في ظلام الممرِّ من دون أن ترفع رأسها إلى السَّقْف. لم تلتفت إليَّ وقتَ قالت. اذهب أنت واطرق بابي ما دُمت المؤلف، وما دُمت في ساعة تأملِّك كما تزعم.

غابت في ظلام الممر. صحتُ بها. خُذِي مِنْهُ كُلَّ شَيْءٍ وَلَا
تَمْنَحِيهِ أَيَّ شَيْءٍ!

* * *

العَهْدُ الْجَدِيدُ

صباحات منوال بن أزرق

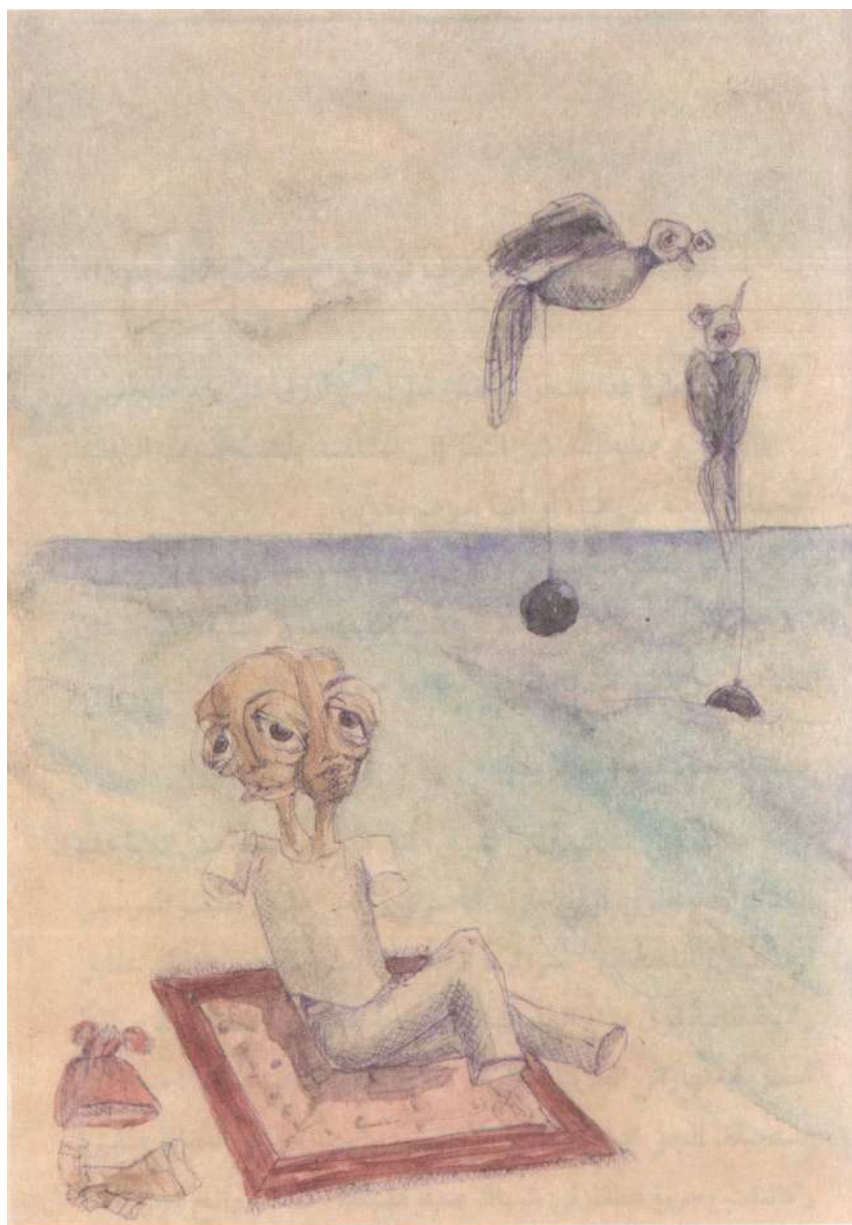
كَلِمَة

.. كَمَثَلِ الْحَمَامَةِ الَّتِي يُؤْخَذُ فِرْخَاهَا فَيُذْبِحَانِ، وَتَرَى ذَلِكَ
فِي وَكْرِهَا، وَلَا يَمْنَعُهَا مِنَ الْإِقَامَةِ فِي مَكَانِهَا حَتَّى تَأْخُذَ هِيَ
فَتُذْبِحَ.

عبدالله ابن المقفع

مشروع رواية

«نصّ نسيب»



صباحُ أوّل

«... ثم أطبق أسنانه على طرف ثوبه وراح يركض كالمجنون!».

.. (*) على هذا النحو يستفيق منوال بن أزرق كل يوم منذ أمس.

.. يفتح عينيه يتحاشى النظر إلى السقف. يلتفت صوب النافذة.

الحمامة قريبة من هنا، أو أنها سوف تكون..

.. هل كانت الحمامة هنا يوم سقطت الستارة؟ ربما، ولكن متى؟

.. وفي اليوم ذاته، أمس، هائت طليقته فور استيقاظه: أشفاق

للصغيرين! تقطع المكالمة فور تعرّفها صوته: اركض يا جبان!

«انتظار ما يعود وما لا يعود»

كنت في الثلاثين من عمري، قبل عشرين سنة من كتابة هذه

المذكرات. أطوي ثوبي حول خاصرتي، أقمي على رصيف المرسى

الصخري. أتلفت بين المراكب الخشبية المتروكة بغير عناية، تمايل

راسية طافية فوق موج المد الهادئ. رائحة المرسى رائحتي منذ صرت

أمضي فيه نهاراتي الطويلة أنتظر عودة مُحتملة وأخرى أمتحها احتمالات

مستحيلة. الجو مُشبع برطوبة الأخشاب والجبال وزفر أسماك صغيرة

وكائنات بحرية عالقة في شباك صيد مُهملة؛ خليط روائح يجزّ قطعاً

(*) لم ألحظ تغييراً في أحداث الصباحات الخمسة إلا اسم الشخصية المحورية،

فارتأيت الاكتفاء بإعادة قراءة بضعة سطور. (قطنة).

السَّاحِل ونوارسه إلى المكان. أصوات ألفتها تمنحُ المرسى حياةً كأنما تُحدثُني وتُبدِّدُ شعوري المرير بالوحدة؛ طقطقة أخشاب المراكب، وهدير الموج المُتغلغل في فراغاتِ صخورِ المرسى يدفعُ أبا العُريس للخروج من مكمنه مُبتلاً ممتعضاً ينفضُ جسده، ومواء القطط ونداءات النوارس حول وليمة شباك الصيدِ المهملة. أُغيبُ مع لهفةٍ عقلي واضطرابه قبل الغروب في حين زوارق رجال خفر السواحل تُسَطِّط المكان. أفكرُ في الوقتِ أحسبه. يُداهمني قلق. أترقبُ عودةَ سَيِّءٍ من أفراد عائلتي غيَّبهم الأزرق البغيض. أطمئنُ نفسي أخالفتُ عقلي إذا ما طالَ غيابُهُم. كلُّ مَنْ عاشَ في الدَّارِ يصيرُ مِنْ أهلها؛ حمامُ الدَّارِ لا يغيب، وأفعى الدَّارِ لا تخون. هذا ما يقوله هاتِفٌ في داخلي ولَدُهُ الفقد قبل سنواتٍ طوال، إيمانٌ أكسبني إياه رغبتي في الحفاظ على مَنْ أُحِبُّ مَذْكَ كُنْتُ صَغِيرًا. إيماني الذي لا أفهمه. إيمانٌ أَشْكُ في وجوده لولا ما يُشبهُ الصَّوتَ الذي يجيءُ من داخلي وقتَ ضعفِي، وقتَ احتِياجٍ إليه. يجيءُ مُطمئناً إلى وجوده إذا ما هَدَّنِي الخوف. يجيءُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِهِ وَيَغِيبُ في صَمْتِهِ إنْ أنا حاولْتُ استنطاقه غَضَبًا. طالَ انظاري مُقْبِعًا على رصيفِ المرسى. يناوشني شكٌّ بعودةِ غائب، وإيمانٌ بعودةِ غائب. غائبٌ لم يُسَمَّ أَجَلَ عودته، وغائبٌ موعِدُ أوبته اليوم من أجلِ غَدٍ يوافق الذكرى الرابعة والعشرين لوفاة أُمِّي.

منوال

.. يُغْمِضُ منوال عينيه على وجعه، يفتحهما حمراوان لا مِعتان على شقوقِ السَّقْفِ متنهِّداً. لو أَنَّكَ تنطق! يهزُّ رأسه محدِّقاً في دفترِ

مذكّراته على الطاولة الصّغيرة قرب الشّيرير.

«صوت ما ليس له صوت»

كنتُ في السّادسة يومَ هاجَرَ والدي بصحبةِ إخوتي الأربعة الكبار مُخلِّقًا زوجةً وولداً في البيتِ القديم. هجرةً بلا سبب، أو ربما يعرف الكلُّ أسبابها إلا أنا.

لا مؤنّس لوحدني مع أمّي الواجمة، في بيتٍ صامت، إلا كائنات حوش الغنم، في مكاني الأثير. أتذكّر حينما رأيتُ الخادِمةَ فايقةَ هُناك، داهمني فزعي مِن تلك الغريبة التي ظهرت في دارنا على حين غُرّة، يعرفها الكلُّ ولا أعرفها، أعادها والدي مع ابنتها الصبيّة الحسنة لتمكّنا معنا قبل سفره بشهور، ولبعيْش هو مع زوجةٍ جديدةٍ في بيتٍ جديدٍ على تلٍّ في جزيرةٍ ليست بعيدة؛ بيتٌ واسعٌ مُقابل البحر على حدٍّ وصفِ إخوتي. تركني، لصغر سنّي وحُسن حظّي، عند أمّي في البيت القديم. أنا، إلى هذا اليوم، لا أدري سبباً لرحيل والدي على هذا النحو. إذعان إخوتي يشي بحجّة يملكها ولا يُصرّح بها. يرون أنه دائماً على صواب مهما بدا قاسياً في كثير من تصرفاته. أمّي التي أسمت إخوتي حمام الدّار أمضت أيامها تتحرّى عودتهم. «يعود المولاف»، كانت تقول. والمولاف هو الطائر، أيّ طائرٍ يألف المكان، يؤوب إليه مهما ابتعد. طال غيابُ إخوتي عن بيتنا وكأن الجزيرة لا تبعُد عن المدينة بضعة أميال. كنتُ مثلها أشتاقُ إخوتي الكبار. ظنّ والدي أنه، بإحضار فايقة وابنتها قُطنة التي تكبرني بعشر سنوات، قد قام بواجبه تجاه زوجةٍ وابنٍ ينوي هجرهما ولا أحد لهما في المدينة.

فايقة التي كانت ملك جدِّي، ثُمَّ ورثها والدي، مكثت في هذا البيت سنواتٍ طويلة قبل أن تُطرد هي وكُلُّ العبيد لسببٍ أجهله. أُنذِرُ فيما يُشبه الحلم، حينما كنت صغيرًا جدًّا، بيثنا مليء بأولئك الصَّامتين، في حوش الغنم أو البهو أو السَّطح. لم يُجبنني أحدٌ لماذا طردهم والدي. بحث عن فايقة واشتراها بعد سنواتٍ الطَّرد مع ابنتها. بدَّت وحشية غريبة بالنسبة لي، أليفةٌ مألوفةٌ بالنسبة لأمي. أعادها والدي قُبيل رحيله مثل أختٍ منسية تؤنس أُمِّي المسكينة وتُبدِّد وحدتها. كنتُ أخافُ فايقة وهي الغريبة التي لا تُشبهُنا. بهقاء شرماء، نحيلة فائقة الطول منحت الجِئاء شعرها الأشيب حُمْرَةً نارِيَّةً كريهة. أسنانها الأمامية مفقودة تكشفُ عن لسانها بسبب شيءٍ يُشبهُ الجُرح القديم على أرنبة أنفها، يُباعِدُ بينَ منخريها نزولاً إلى الشَّفَتَيْن، يفلقهُما وقد جعلَ من إطباقهما أمرًا مُستحيلًا. ذلك العيب الخلقي في منتصف وجهها يجعلُها تُشبه الكائنات التي نحيكُ حولها المعاجز قصصًا خرافية تمنعُ خروج الضَّبيَّة من البيوت وقت الظهيرة وقلولة الآباء، وهذا ما يدفعني إلى عدم النظر إلى وجهها. كنتُ أخافُها وأمقُّتها لقسوتها مع دجاجات البيت؛ تقتل كلَّ يومٍ واحدة، تعزُّ عُنقها تُسيل دمها، وتنزع ريشها بقسوة. تُخالفني أُمِّي الشَّعور. فايقة لا تتغيَّر، أصيلة، مثل أفعى الدَّار، شكلُها لا يوحى بإخلاصٍ نكته لأهل البيت، عرفناها وفيَّة وفاء أمَّها لجِدَّتِكَ. أخافتني أُمِّي بِقَوْلِها أكثر، على عكس ما أرادت، فكرة وجود أفعى في الدَّار كفيلة بجعلني أزدادُ نفورًا وانقباضًا.

لا أنسى أبدًا كيف كان والدي، خلال زيارته، يلتهم ابنة فايقة بنظراته كُلِّما مرَّت من أمامه. وجدته أكثر من مرَّة في المطبخ أو حوش

الغنم يختلي بالفتاة. بهمس في أذنها بما لا يُسَعِفُنِي الهمسُ لِسَمَاعِهِ.
نصُّدُهُ. يمضي غاضِبًا يَجْرُ خَيْتُهُ وراءَهُ. لمحني ذات مرَّة عند مدخل
الحوش. قال وهو يُمرُّ سَبَّابَتُهُ أسفل ذِقْنِهِ. لو نطقت بكلمة!

ذات ظهيرة، حُتَّتْ فَايِقَةُ الخَطْوِ، في حوش الغنم، وراء إحدى
الدجاجات الهَلَعَةِ تحملُ سَكِينًا في يدها. نظرتُ في وجهها على
غير دأبي. أرعيني منظرُ ابتسامةٍ على وجهها قصَّدت بها أن تُطمئنني.
ابتسامةٌ ضاعفتُ اتساع جرح شفيتها كاشِفَةً عن لثتها باهتة اللون
ولسانٍ يظهر وراء فراغ خلَّفته أسنانها المفقودة. أثرتُ دُعر الدجاجات
بُصْرًا خفي. رحْتُ أجري إلى أسفل السَّلَمِ أَتَكَوِّرُ على ذاتي وصورة
فايقة بنصل سَكِينِهَا اللامعِ وابتسامتها لا تُفارقُ خيالي. أَتَكُونُ تلك
التي جاء بها والدي، عونًا لأمي، سافكة دِماءٍ تنوي إنهاء حياتنا لِيخلو
له البيت مع زوجته الجديدة إذا ما رَغِبَ في العودة؟! ألهذا السبب
تركنا أبي؟! لا أدري. يصيرُ الرَّحِيلُ أخف وطأة لو أوجد له مُسوِّغًا،
مَجَّانِيَةً الفقد تُحِيلُهُ جرحًا مفتوحًا في صورة سؤال.

كانت المرأة الأولى التي أنصت فيها إلى هاتِفٍ في داخلي يُفضي؛
حمام الدَّارِ لا ينبغي، وأفعى الدَّارِ لا تخون. انتفضتُ فرحًا وقت
سمعتُ الصَّوتَ واضحًا يُشَبِّهُ صوتي تشوُّبُهُ بحَّة. كنتُ لأُؤمِّنُ بأنني
من لفظَ الكلماتِ لولا إطباقِي شَفَتِي. رحْتُ أَفَكِّرُ في مصدرِ الصَّوتِ
مُطَمِّنًا إلى قوله، فهو قولُ أُمِّي بشكلٍ أو بآخر، ولكن أُمِّي ليست في
الجوار. أغمضتُ عينيَّ بشدَّةٍ أَرَهَفُ سَمْعِي مُحَاوِلًا استعادة الصَّوتِ،
لكنني لم أنصتُ إلى شيءٍ إلا ترديدَ أنفاسي المُتسارعة. كانت أُمِّي في
حُجْرَتِهَا تَخِيطُ فتقًا في أحد أثوابي. ابتسمت عندما أخبرتها بصوتٍ

همس لي بتلك الكلمات. أشارت لي أن أقترِب. قرصت خدي برفقٍ
تسألني بوجهٍ مُتعبٍ باسم. هذا صحيح، ولكن، صوت من؟ أبتقت
ابتسامتها تتحرى ردِّي موقنة بأنها مصدر القول. سكث قبل أن أشير
بشئاني إلى صدري. أحذها هنا. بهتت أُمِّي تنظرُ في وجهي مُستغربةً
هاجسة. راحت عيناها تنظرُ إلى كلِّ شيءٍ إلّاي. تركت الثوب في
حجرها وألقت بالخيط والإبرة في غُلبه حلويات معدنية إلى جوارها.
طوّقتني بذراعِها مُرتبكةً فضمتني بشدة. اسم الله عليك!

منوال

.. زُرقة السماء تأخذه بعيداً عن فيروز إلى أمس. تبّاً لك يا أزرَق
ماذا تُريد! يعقِدُ حاجبيه مُعاوِداً إمعان نظره في الطائر الرّمادي وراء
نافذته.

«انتظارُ أوبةِ الثُّلث»

أوشكت الشمس على المغيب وقتٍ لاحت في الأفق نقطة
تقترب. قاربٌ صغيرٌ جداً يدنو إلى اليابسة مُسرِعاً، يُدوي مُحركه
بهديرٍ لا يتخلّف عن مواعده. يزورُ كلَّ عامٍ في أجّله. استقمّت وإقفاً
على أطراف أصابعي مُشرّبت العنق وقد فككت رباط ثوبي وأسدلته
على ساقِي. مشيت على مهلٍ حافياً، أقطعُ اللسان الصّخري عمقاً
في مياه البحر. وقفتُ على حافة رصيف المرسى أحملقُ في النقطة
السوداء وقد اقتربت. هو قاربُ شقيقي الأكبر. هجستُ لنفسي
أبشّرها: غادي. رحّت أحدثني: غادي الأسرع والأول على رأس

العائدين دائماً. سكنت النوارش وقتما دنا القارب بهدير مُحَرَّكِهِ إِلَى السَّاحِل. راح غادي يَلْوُحُ لِي بِيَدِهِ وَيُشِيرُ وَرَاءَهُ نَحْوَ الْأَفْقِ وَقَتَ ظَهَر مَرَكَبٌ أَكْبَرُ حَجْمًا أَبْطَأَ حَرَكَةً. ملأْتُ صَدْرِي شَهيقًا أَرْدَفْتُهُ بِزَفِيرٍ طَوِيلٍ يَصْحَبُ أَسْمَاءَ بَقِيَةِ إِخْوَتِي الَّذِينَ هُمْ عَلَى مَتْنِهِ. رَحْتُ أَعَدَّدُ عَلَى رُؤُوسِ أَصَابِعِي: سَفَّارٌ وَعَوَّادٌ وَرَابِيعَةٌ. إِخْوَتِي الَّذِينَ لَوْ أَحْصَيْتُ أَيَّامَ لِقَائِي بِهِمْ بَعْدَ هِجْرَتِهِمْ، وَقَتَ كُنْتُ فِي سَادِسَتِي، فَلَنْ تُدْرِكَ الْأَرْبَعَةَ وَالْعِشْرِينَ يَوْمًا. هُوَ يَوْمٌ وَاحِدٌ فِي السَّنَةِ، يَجِيءُ بِهِمْ وَقَدْ كَبُرُوا سَنَةً، يَجِيءُ بِهِمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَقَدْ تَغَيَّرَتْ مَلَامَحُهُمْ عَنِ الْمَرَّةِ الْأَخِيرَةِ، مِنْ دُونَ أَنْ يَكُونَ لِي ذَاكِرَةٌ تَحْفَظُ أَيَّامَنَا وَنَحْنُ نَكْبُرُ مَعًا فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ. يَا لِظُلْمِكَ يَا وَالِدِي. هَا قَدْ أَنْتَ أَوْبَةٌ إِخْوَتِي السَّنَوِيَّةُ فِيمَا يُشْبِهُ الْحَجَّ إِلَى قَبْرِ أُمَّنَا فِي ذِكْرَى وَفَاتِهَا يَوْمَ غَدٍ. تَنَهَّدْتُ أَلْفَظُ وَجَمَعِي هَمْسًا كَأَنَّمَا أَذْكُرُ الْبَحْرَ بُوْعَدٍ لَمْ يَقْطَعَهُ أَبَدًا: بَقِي الصَّغِيرَانِ؛ زَيْنَةُ وَرَحَّالٌ. وَبَيْنَمَا صَوْرَةُ السَّفِينَةِ الَّتِي أَخَذْتَهُمَا تَوَمَّضُ فِي رَأْسِي، رَمَى غَادِي مِرْسَاتَهُ الصَّدِيدَةَ بِحَرًّا إِلَى جَانِبِ الرِّصِيفِ الصَّخْرِيِّ. التَّهَمْتُ مَلَامِحَهُ بِنَظَرِي أَجْتَرُّ فُتَاتَ ذِكْرِيَاتٍ جَمَعْتَنِي بِهِ طِفْلًا. شَقِيقِي الْأَكْبَرُ، عَزَوْتِي، مَثَلِي الْأَعْلَى الَّذِي يَكْبُرُنِي بَعِشْرِينَ عَامًا، سَنَدِي إِذَا مَا تَنَمَّرَ عَلَيَّ صَبِيَّةُ الْحَيِّ وَسَرَقُوا كِرْيَاتِي الزَّجَاجِيَّةَ، يَكْفِينِي أَنَادِي مَرَّةً وَاحِدَةً: غَادِي! حَتَّى يَغْدُو كُلُّ شَيْءٍ مِثْلَمَا أُرِيدُ. شَيْءٌ مِنْ اثْنَيْنِ لَا بُدَّ أَنْ يَصِيرَ؛ أَنْ يَجِيءَ غَادِي مُشْمَرًّا كُتْبِيهِ عَنْ سَاعِدَيْهِ يَنْتَقِمُ لَشَقِيقِهِ الْأَصْفَرِ، يَسْتَعِيدُ كِرْيَاتِهِ الْمَنْهُوْبَةَ، أَوْ أَنْ يَهْرَبَ الصَّبِيَّةُ الْمَتَمَرِّونَ بِمَجْرَدِ سَمَاعِ نِدَائِي. هَا هُوَ يَجِيءُ عَلَى وَعْدٍ قَدِيمٍ، مِنْ دُونَ أَنْ أَنَادِيهِ. لَا أُرِيدُهُ الْيَوْمَ يَسْتَعِيدُ كِرْيَاتِي الْمَنْهُوْبَةَ. لَوْ أَنَّهُ يُعِيدُ لِي مَا افْتَقَدْتُهُ صَبِيحَةَ

أُمس! فام بعقدِ حبلِ القاربِ إلى أحدِ أعمدةِ المرسى الخشبية. نزل
مُثاقِلًا من قاريه في مشهدٍ يتكرَّر كلَّ عام. صورةٌ لا نحملُ جدَّةً
معها إلا شيباتٍ جديدةٍ زاحمت شارِبَ غادي وانحناءٍ منحَ ظهره
نقوُسًا أكثر مما كان عليه. أحكمَ لَفَ غُتره على رأسه وباعدَ بين
ذراعيه، يواجهني بصدِّره، يومئ لي برأسه باسِمًا: تعال! له استدارة
وجه أُمِّي وابتناسمتها. أسرعُ إليه أعانِقُه. مسَدَّ على ظهري يُعزِّني.
لعلَّ أحدُهم أ برقَ إليه يُنبِّؤه بالفاجعة. أيُّ صُدفةٍ في أن نسبِقَ فجميعتي
ذكرى فقد أُمِّي بيومين! تشمَّمْتُ رائحةَ طينِ بَيْتنا القديمِ في ثوبِ
غادي وجلدِ رقبته المتغصَّن. مِن شأنِ عشرين سنةٍ يكبِّرني بها غادي
أن ترتفع به إلى منزلةِ أب، وأن تهبطَ بي إلى منزلةِ ابنٍ صغير. غبْتُ
في عناقِه حتى انتبهتُ إلى وصولِ المركبِ الكبير، قاطعًا طريقه بين
زوارق خفر السَّواحل، تحتكُ أخشابُه في صُخورِ المرسى. ينزلُ
سَفَّار وعوَّاد، يُتَبَّنان لوحًا خشبيًّا مثلَ جِسْرِ بين المركبِ والرَّصيفِ
الصُّخري، يُعاونان رابحةَ المُشَّيحة بالسَّوادِ على العبور. يقفُ الاثنان
إلى جانبيها يُمسِكُان يديها. أنقلُ بصري على الوجوه الثلاثة. أجمعُ
ما ورثته من ملامحِ أُمَّنَا؛ دِقَّة أنفِ سَفَّار وشفتاه، عينا رابحةٍ وغمَّازةٍ
خذَّها الأيمن، اتساع جبينِ عوَّاد وانحناءَ حاجبيه. تجمَعُنا أُمِّي في
ملامحها المثورة في وجوهنا وطباعنا، ونفترق في ملامح والدي التي
لم أرث منها شيئًا، كأنها ميراث اقتسمه إخوتي من دوني.

يتقدَّم الأربعة صوبي وحضور رابحةٍ يُشبِه حضورَ أُمِّي يدفعُني
للركضِ نحوها مثل طفلٍ يُقابل أُمَّه بعد فراق. أقِفُ أمامها أروي
عطشًا خلفه غيابُ وجه غاليتي. نُلصِقُ كَفَّها إلى وجنتي نتحسَّسُ

وجهي، تفرؤني كما لو كنت ولدها. حبيب أختك يا منوال. يحمز
أنفها فتعمل ابنة، تتخصل عيناها، تقطع أنفاسها وترتعش
شفتها. تسكت عن قول شيء لئلا تبكي فيجر بكائها بكائي. أعانقها.
أتنشق رائحة أمي في عباءة أختي. أنظر من وراء كتفها إلى البعيد
عند تلاقي السماء والبحر. يهتز جسدي بكاء غصبا عن إرادتي.
أنخرط في نحيب بفعل فقدين، أحدهما دفعت بذكراه رائحة عباءة
رابحة، والآخر لم يفارقني منذ مرور السفينة العملاقة من هنا. من أين
لإخوتك، غير الدم، صلة تجعلهم إخوة؟ صلة تتجاوز تاريخكم بكل
هنايه وسنوات القطيعة وقت يعانق واحدكم الآخر، صلة تمنحك في
العناق شعورا آمنا بأنك تستعيد جزءا مبتورا من جسدك. ثمسد رابحة
على رأسي وأنا في حضنها: ابك، ابك يا ابن أمي. أمرغ وجهي بين
عنقها وكتفها أسمى فجيعتي: زينة ورخال! يتحسرج صوتها: أدري..
أدري.. حمامتان من حمامات الجنة يا حبيب أختك، أخذهما من
جاء بهما. ارتعشت شفتاي تلفظان ما يدريه عقلي: لن يعودا! يتحقر
الهاتف القديم في داخلي وأردده فيما يشبه صلاة: حمام الدار لا
يغيب! أسندت ذقني إلى كتف رابحة أطوقها بذراعي. أطلقت بصري
إلى البحر أبسم. يطيب لي قلبي الذي تبهن على صدقه عودة
إخوتي كل عام رغم طول الغياب. يربث غادي على كتفي مبددا
خيالاتي. لا داعي لانتظار ما لن يعود. أنتفض أجبته. من يجيء بك
كل عام.. يجيء بهما.

منوال

صارَ منوال يدخُلُ غرفة نومِه بظهره. جرَّبَ يوم أمس أن يلجَ
الغرفة مُتفهِّقراً، مُتظاهراً بعدم انتباهه إلى طيورِ الدُّكَّةِ وراءه. ينظرُ إلى
الزَّرازير والفواخيت والحمامة في المراة أمامه. الغريب أنها لم تهزَّب!

..

..

«مُناوِشَةُ شَكِّ لِيَقِينِ»

تركثُ المرسى قبيل الفجر وراء ظهري، أحملُ خيبتني ماضياً إلى
بيننا العربي القديم الذي لم أعد أزوره إلا مرَّة في السَّنة وقت إياب
إخوتي. صارَ ما يُشبه نُزْلاً وقت زيارتهم. وجدته خالئاً من زوَّارِهِ الذين
أقبلوا يوم أمس. لا أثر لهم إلا في صورة جدارٍ قديمة، تجمع والديَّ
وإخوتي من دوني. كنت أحتاج إلى إخوتي أكثر من أي وقت مضى.
حمامات الدَّارِ كدأبها في حجَّها السَّنوي تخرجُ فجراً إلى المقبرة
قبلَ ذهابها إلى سوق المدينة، ثمَّ إلى المرسى من أجل عودتها إلى
الجزيرة. فلتعذرني أُمِّي هذه السنة لتخلُفي عن زيارتها، ولتنعم بزيارة
حماماتها الأثيرات. عدتُ إلى المرسى لعلَّ زينة ورخَّال قد استدلَّ
طريقاً يجيءُ بهما إلى السَّاحل في اليوم الثاني لغيابهما.

رفعتُ ثوبي أطوي طرفه عاقداً إياه عند خاصرتي. أقعيتُ فوق
صخُورِ رصيفِ المرسى أُرسلُ نظري بعيداً، أمشُطُ صفحة الماء
المنرامية على مدِّ البصر. لا أثر لبُغيتي بين كُريات إسفنجية، غير
بعيدة، تطفو من شباك طاروف، وبقايا أخشاب وقوارب صغيرة

تناثرت في المكان. بين عقلي وإيماني كنتُ شاردًا أطفو في الوسط. يوشيكُ هذا العقل أن يُسلمَ بأمرِ عودتهما إزاء إصرارِ رغبي المريضة. ألم نقلُ إنهما لن يعودا؟ رحتُ أفكر. صغيران والموجةُ كانت شديدةً عالية. انتفضتُ وقد أفرغتني فكرةُ لا محلَّ لقبولها لديّ. انتزعتُ من داخلي ما يُيقيني على قيدِ أمل. رُبّما. هزرتُ رأسي الجأ إلى إيمانٍ غافٍ أوقظه. نعم، رُبّما. الرُبّما صارت أكيدًا وأنا أغدّي رغبي برويتهما. رحتُ أكرّر. أكيد. أكيد. تربّعتُ على الصُخور أهيئُ نفسي لانتظارٍ طويل. تمرُّ قِطعةٌ يتبعها صغارُها. أبتسم. أتذكرُ الصّغيرين وقتَ كُنّا هنا، في السّاحلِ المُحاذي للمرسى. أشيرُ لهما نحو الرّصيف الصّخري. غدًا يجيءُ أعمامكما لزيارة قبر جدّتكما. يرْكضان كأنّ الفقدَ شيءٌ لن يكون. يرُشّان الماء على بعضيهما ويُسَيّدان بيوتًا من الرّمْل وصخورِ البحرِ وقواقعِهِ. مضى الاثنان مثل الزمن، وبقيت أنا على قيدِ انتظار. منيرةٌ أيضًا كانت هنا، تُقرِفُص إلى جوارِي. كلانا كان مُطمئنًّا قبل أن تأتي السّفينةُ تحملُ معها الصّغيرين من دون إذنٍ وتمضي. أيّ وجعٍ حلَّ بك وقتَ استحالت كلمتك الأثيرة، على لسانيهما، أخيرة: يَبْه. يَبْه. يَبْه. تلك الكلمة التي لم تُسعِفك يومَ مددت ذراعيك لأبيك وقتَ غرقت صغيرًا، كلمة يَبْه التي لا يسمعها والدك قط مهما ناديته بها، لم تُسعِف صغيرك وقتَ مجيء السّفينة التي لعنتك بأبوتك. أمضيت سنواتٍ من زواجك تنتظر مجيئهما. جاء، ولكنك لم تفلح في الحفاظ عليهما، فامضِ بقية عُمرِكَ في انتظارٍ ما أضعته.

مضى الوقتُ بطيئًا وأنتُ تُناورُهُ باستعادة ذكرياتٍ قريبة وأخرى

بعيدة. ساعات لم يتخللها شيءٌ عدا أسئلة البحارة في ذهابهم وإيابهم. أي أخبار؟ تومئ برأسك نحتمي بصمتٍ يُغنيك عن إجابةٍ تمقُّتها. تدنو الشمسُ نحو مغيبها بغير اكتراثٍ لغوزك إلى أشيعتها تعينك على رؤيةٍ مُقبلٍ مُحتمل. احتمالٌ لا مكان لتحقيقه إلا في أملٍ عبثي ابتدعته تُسميه إيماناً يُكرِّسه قولٌ لا أساس له؛ حمام الدار لا.. يُربُّث أحدهم على كتفك. ترفع رأسك. غادي بوجهه المُتعب يسأل. يا ابن أمي، ألن تزور قبرها؟

أستقيم واقفاً أمام غادي. أشيرُ بذقني صوب البحر. سوف أفعل.. مع الصَّغيرين فورَ عودتهما. يلتفتُ غادي إلى سقارٍ وعوَّادٍ ورابحةٍ كأنما خذله برذِّي. يتبادلون الصُّمت. تقتربُ رابحةٌ بملامح متوسِّلة. منوال، لم يبقَ لك أحدٌ هنا، الأناثي معنا؟ وكأنها لا تدري أن لي في هذه الأرضِ قبراً لا أُطبق فراقه، وأملأُ يُبقيني في هذا السَّاحل منتصباً مثل فزاعةٍ قديمةٍ مُهترئة. ثم من أين لها بقيتها بالأحد لدي؟ أسألها أستوضح الإلم ترمي. هل زرتِ منيرة؟ أو ماتت تُردف. زرتها، وأنصحك ألا تفعل! أشيخُ ببصري صوب البحرِ أبتلعُ حروفاً لا طاقة لي بلفظها. زوارق خفر السَّواحل باتت بعيدة، بالكاد ألمحُ بعضها. يمضي إخوتي نحو المركبين يحملون أمتعتهم. يرحلون. كيف يرحلون هكذا؟ لقد رَوْضَهُم الفقدُ على القبول مُذ إذعانهم الأوَّل لقرار والدنا بالرحيل. يضجُّ المرسى الصَّغير بدويٍّ قاربٍ غادي. يتبعهُ مركبُ الثلاثة. يُلوحون بأيديهم موغلين في ابتعادهم بحرًا. ألوحُ لهم بإيماني الراسيخ بعودتهم الأكيدة بعد عامٍ من سفرهم، كما سيفعل رَحَّال وزينة قريبًا ليجدانني في المرسى أنتظر. يخبو إيماني لحظةً اختفاء إخوتي.

لحظة يخبو هدير المراكب بعيدًا. لحظة أجدني وحيدًا. أردد اسمي الصّغيرين كتعبويدة تُبقي على إيماني. يُعانِدني عقلي. لا تنتظر، وحدهُ المُسافر يعود، لم يُسافر، لن يعود.

منوال

.. تذكر منوال فيروز التي طال غيابها. أتراها تاهت في السماء؟ هل ابتلعها الزرقة هي الأخرى؟ ما كاد يُنهي تساؤله حتى ظهرت على دكة النافذة تحمل ورقة شجر يابسة..

«منحة العقل ومِحنته»

لا أفهم شيئًا. لماذا أنظر رَحال وزينة في المرسى وغيابهما ليس مثل غياب إخوتي، لِمَ هذا الانتظار ما لم يكونا في سفر؟ أنا أذعن لإيماني، والإيمان لا يعدو كونه رغبة، والرغبة ليست أكيدة التحقق ولكن شيئًا أفضل من لا شيء. أو غُل في تفكيري تشاؤمًا لعل الهاتف يصحو من غفوته، كما عودني، يُسكّن رعدة أضلعي. أكذبه لعله يتنفّس، يُثبت لي عكس ما أقول. أسئلة الفقد تطوّقني. ألعن عقلي. والسؤال.. وحده السؤال منحة العقل ومِحنته. والإيمان هو أن تُعلّق أسئلتك على جبال الغيب، وأن تُجمّد عقلك، وأن تعقد صفقة مع لا شيء، لأن لا سبيل لك إلا انتظار غدٍ قد يجيء بما تُريد أو لا يجيء. لا العقل يُسوّفني ولا الإيمان ولا برزخ الأسئلة بينهما.

بقيت مُقرّضًا على الضُخور أنتظر. حائرًا بين اثنين؛ مؤمن بفكرتي وأرفضها، كافرٌ بخدسي وأرغبه. أدت ظهري للبحر وقت

ابتلعت الظلمة المرسى. حثث خطوي إلى بيت أهل زوجتي. مضى
يومان من دون أن أراها وقد غصّ بيتهم بالنساء اليوم وأمس يُعزبنها.
من أين لهذا البقين؟ كيف يُعزّي المرأة بطفلين بمكان في مكان
غير معلوم، يعودان غداً أو بعد غدا!

منوال

.. مرّر ظاهر كفّه على ذقنه. تحسّس شعره الأشيب النابت.
غريب! كنت صغيراً يوم أمس! غار رأسه بين كتفيه. قطّب حاجبيه.
ألصق فكّه السفلي برقبته ونفخ صدره: غروووغ غرووووغ.



Moslem El Kassab

صباح ثانٍ

«... أَخَذَ يُلَوِّحُ بِيَدِهِ. بِصَبْحُ بِهِمَا: رَحَال.. زينة! ثم أَطْبَقَ أَسْنَانَهُ
على طرفِ ثوبه وراح يركضُ كالمجنون!».

.. ارْكُضْ يَا جَبَانًا! ثُمَّ أَقْفَلْتَ طَلِيقَتَهُ الْخَط. رَكَضَ مَنَوَالٌ إِلَى
الْمَطْبَخِ يَغْلِي الْمَاءَ.

«فَاقِدُ الشَّيْءِ، قَدْ يُعْطِيهِ»

تَبَعْتُ وَالِدَةَ زَوْجَتِي مُتَرَدِّدًا ثَقِيلَ الْخُطَى إِلَى حُجْرَةٍ فِي مَتَصَفٍّ
مَمَرٍ الْمَدْخُلِ تَمَكَّثَ فِيهَا مَنِيرَةٌ. حُجْرَةٌ ضَيْفٍ، وَهَذَا يَمْنَحُنِي شَمُورًا
بَأَنَّهَا لَنْ تُطِيلَ الْبَقَاءَ، مَنِيرَةٌ حَتْمًا نَعُودُ. أَدَشُّ كَفِّي فِي جَيْبِي ثُوبِي.
أَفْكَرْتُ فِي دَافِعِ أُمِّ مَنِيرَةٍ لِأَنْ تَسْتَقْبِلَنِي مُسْتَرَةً بَعَاءَتِهَا، ثُمَّ سَكَّ بِجِزءٍ
مِنْهَا أَمَامَ وَجْهِهَا لَا تَكْشِفُ إِلَّا عَيْنًا وَاحِدَةً كَأَنَّمَا تَسْتَقْبِلُ غَرِيبًا. يَتَنَاهَى
إِلَى سَمْعِي بِكَاءِ طِفْلةٍ. أَتَلَفْتُ. ابْنَةُ أُخْتِ مَنِيرَةٍ تَبْكِي فِي آخِرِ الْمَمَرِ.
تَرْكُضُ نَحْوِي تَتَشَبَّثُ بِثُوبِي. عَمِّي عَمِّي أَعْدِلِي الدُّمَيْتَيْنِ. لَمْ أَفْهَمُ
شَيْئًا. أَبْعَدْنَهَا جَدُّنَهَا نَاهِيَةً وَأَشَارَتْ لِي أَنْ أَتْبَعَهَا. فَتَحَتْ بَابَ الْحَجْرَةِ
تَوَمَّى لِي بِالْدُخُولِ قَبْلَ أَنْ تَتَصَرَّفَ مِنْ دُونِ أَنْ تَفُوهَ بِكَلِمَةٍ. مِلْتُ بِرَأْسِي
أَنْظُرُ دَاخِلَ الْحُجْرَةِ الضَّيْقَةِ. أَلْفَيْتُ مَنِيرَةً مُقْرِفَةً فِي الزَاوِيَةِ عَلَى أُرِيكَ
أَرْضِيَّةٍ، تَحْمِلُ بِذِرَاعَيْهَا دُمَيْتَيْنِ بِلَاسْتِيكِيَّتَيْنِ مُقْمَطَتَيْنِ بِأَقْمَشَةٍ مُنْسَخَةٍ؛
قِمَاطٌ وَرَدِي، وَآخِرُ أَزْرَقِ سَمَاوِيٍّ. تُهْدِيهِمَا تُنْشِدُ تَهْوِيدَةً حَزِينَةً

وعيناها ناعسان ساهمان نحو الأرض. أسندت إحدى الدُميتين بين
فخذيهما في حين أسندت رأس الأخرى إلى زنديها. فكَّت عقدة ثوبها
عند الصدر وعيناها نحو الأرض لا تزالان. حرَّرت ثديها تُلَقِّمُ الدُّمية
حلمتها وهي تُسَوِّل وتُمدِّد على رأسها البلاستيكي. دخلت الحجرة
مُتَنَحِّنَةً. حدجتنى منيرة بنظرة غضبٍ أو حزنٍ مرير، لا أدري، لمستُ
في نظرتها المضطربة وانكماش جسدها نفورًا. دنوتُ إليها مَادًّا كَفِّي
إلى رأسها. غارت رقبتها بين كتفَيْها من دون أن تنظر إلي. كدتُ
ألمس رأسها أَمْسِدُه لولا أن عاجلتني تضربُ كَفِّي بيدِها تُبَعِّدُها.
كَفِّي قريبةً لا تزال. أناوِرها. منيرة! ألقت نظرها على كَفِّي متوجِّسة.
زعلانة؟ سألتها. عاجلتني بضربةٍ أخرى أشد. سحبْتُ ذراعي. لا بأس.
صدَّقيني. تحشرج صوتي. حمامُ الدَّارِ لا يغيب. ظلَّت منيرة بعينين
حمراوين لامعيتين تُراقِبُ كَفِّي العائِدة إلى داخل جَيْبي. ابتسمتُ لها
وقد هدأ خوفُها. حتى أنتِ تؤمنين بما أؤمن. ابتسمتُ أدفعُها لأن نردَّ
لي ابتسامه. عيناها الشَّارِدَتان تنظران إلى الأرض ثانية. أفلتت دموعًا
غزيرة وهي تهرُزُ زنديها وفخذها تُهدِّدُ الدُميتين. تترنَّم بصوتٍ هذَّه
التَّعب:

للحبيب وسادة، حظيت زندي، للحبيب وسادة
نحت أنا لو أبرأ، نوح الحمامة، نحت أنا لو أبرأ
من أين للحمام قُدرته أن يوجد له مَحَطًّا في كُلِّ ظرف؟!

منوال

.. أطلقت فيروز جناحيها للريح. جحظت عيناه وهو يُحدِّقُ في

العُش. أَسْنَدَ كَفَّيْهِ إِلَى رَأْسِهِ فَاغْرَأَ فَمَهُ عَلَى اتْسَاعِهِ. يَا جَبَانَةَ تَعَالِي! كَيْفَ لَهَا أَنْ تَتْرَكَ بِيضَتَيْهَا عَلَى هَذَا النَحْوِ؟ .. حَمَلَ الْبِيضَتَيْنِ فِي كَفِّهِ الْمُرْتَعِشَةِ. دَفَأَ فَيَرُوزَ عَلَى قَشْرَتَيْهِمَا لَا يَزَالُ.. زِينَةُ وَرَحَّالٍ! نَعَمْ، أَنْتُمَا زِينَةُ وَرَحَّالٍ! كَانَ يَحْلُمُ بِمِثْلِ هَذِهِ اللَّحْظَةِ مُنْذُ أَمْسٍ طَوِيلٍ. هَزَّ رَأْسَهُ يَضْحَكُ. حَمَامُ الدَّارِ لَا يَغِيبُ.

«زُرْقَةُ تَفْتَحُ أَبْوَابَهَا عَلَى مَوْعِدٍ مُسْتَحِيلٍ»

أَتَذَكَّرُ وَالِدِي فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ، حَاضِرًا بِجَسَدِهِ مَرَّةً، وَبِشَبِيحِهِ مَرَّةً أُخْرَى بَعْدَ زَمَنِ طَوِيلٍ، فِي ذَلِكَ الْمَرْسَى الْمَشْطُورِ بَيْنَ زَمَنَيْنِ، زَمَنِ هِجْرَةِ إِخْوَتِي الْبَعِيدَةِ قَبْلَ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً، وَزَمَنِ سَوْفٍ يَجِيءُ بَعْدَ سَنَوَاتٍ طَوَالٍ يَشْهَدُ فِيهِ هَذَا الْمَكَانُ فَجِيعَتِي بِالضَّغِيرَيْنِ، فَجِيعَتِي قَبْلَ يَوْمَيْنِ.

فِي سَادِسْتِي كُنْتُ. غَادِي فِي عَشْرِينِهِ. رَابِحَةٌ وَعَوَّادٌ وَسَفَّارٌ عَلَى ذَلِكَ التَّرْتِيبِ، كُلٌّ يَصْغُرُ الْآخَرُ بَعَامِينَ. يَسِيرُ الْأَرْبَعَةُ عَلَى رَصِيفِ الْمَرْسَى مَطَاطِنَيْنِ مُذْعَنَيْنِ. أَجْرِي نَحْوَهُمْ مَادًّا ذِرَاعِي. أُنَادِي كُلًّا بِاسْمِهِ. يَقْطَعُ وَالِدِي طَرِيقِي إِلَيْهِمْ. يَفْتَحُ ذِرَاعِيهِ بِصَبْحُ بِي. الْبَيْتِ، الْبَيْتِ عِنْدَ أُمِّكَ! إِخْوَتِي لَا يَلْتَفَتُونَ إِلَيَّ. وَأُمِّي الْبَاكِيةُ فِي بَيْتِنَا مَوْصِدَةً بِأَبْهَاطِهَا لَا قَوْلَ لَهَا إِلَّا مَا حَمَلَتْنِي إِيَّاهُ. قُلْ لَهُمْ: لَا تَقَاطِعُوا.

أَقِفْتُ أَنْظُرُ إِلَى إِخْوَتِي مُطَرِّقِينَ مَاضِينَ فِي الرَّحِيلِ. يَتْبَعُهُمُ وَالِدِي غَيْرَ مَكْتَرِثٍ لِكُلِّ مَا وَرَاءَ ظَهْرِهِ؛ الْمَدِينَةُ، الْبَيْتِ، أُمِّي وَأَنَا وَخَوْفُنَا الْعَالِقُ غَصَّةً فِي حُلُوقِنَا. يُجِزُّ الْمَرْكَبُ مُبْتَعِدًا. الرِّيحُ شَدِيدَةٌ تَصْفَعُ أُذُنَيَّ وَتُبْعِدُ غُرَّتِي عَنْ جِيبِي. كَفَّاي فِي جِيبِي أَحْدَقُ فِي الزُّرْقَةِ سَاهِمًا.

لم أفكّر في الرّيح مؤمناً بسلامة وصولهم، ومن ثم عودتهم إلى دارنا مهما طال الغياب، حتى وإن حالّ والدي بيني وبين إيصال قولٍ صار وصيةً لم يُسعِفني الوقت لتنفيذها: لا تقاطعوا.

وبعد مرور زمن طويل على هجرة إخواني، وقفتُ في المكان ذاته على حافة خليج المرسى حيث بدأ الشاطئ، مُتخلّياً عن ذكرى سادسني وأنا في الثلاثين، وقفتُ هناك أقضّم أظفاري وقت مرّت سفينةٌ كسرتني في داخلي وهذّت داراً آمنة. كان والدي قد تُوفي مُنذ زمن، قبل أن زوجته وجدته على السرير ميتاً، يرفعُ سبّابته اليمنى يشهد ألا إله إلا الله، ويرفعُ وسطاهُ اليسرى في وجه العالم!

رغم موته لم يزل يُطوّقني بالخوف من البحر. الأزرق الذي مُدّ شربتُ ماءهُ غرقاً ما فُلحْتُ أطفو فيه يوماً. كان والدي هنا وإن لم يكن. يحولُ بيني وبين زينة ورخّال وأذرعهما الممدودة نحوي. كانا ينظران إليّ لعلّي أفعل شيئاً إزاء أزرق يُداهمهما وأزرق يُداهمني، ولكنني لم. أو شكّ أن، ولكن شبح والدي أفلح في صدّي. أطلقا صرخاتهما إليّ. يئسه. يئسه. يئسه. ظهر أبي، أعني شبحه، لا أدري من أين، ولا أدري لماذا استفرّته نداءات الأب وهو الذي لم يكثر لنداءاتي صغيراً وقت تركني للغرق! ظهر خيالُه على حين غُرّة يواجهني، يضدّني فاتِحاً ذراعَيْه عند التقاء الرّمْل بالماء. لا أنذركُ صورةً عدا الأزرق، والشّبح بقامتِه الطويلة مُلقياً غُترته على رأسه كيفما اتَّفَق، بناورني، يُصَفِّقُ ويُصَفِّرُ ويدفعني بعيداً عن صغيري. الخوف. الخوف هو كُلُّ ما بقي عالِقاً بالذاكرة، وصوت نداءاتي فور ما خَبِت نداءاتهم.. زينة! رخّال!

رفعتُ طرف دِشداشتي إلى فمي أَعْضُ عليه. أدتُ ظهري للبحر
وركضت.

منوال

تبَّه إلى البيضتين في كَفِّهِ وقد فقداء دِفءَ فيروز. ارتبك. أطبق
كَفِّهِ عليهما برفق. قَرَّبَ كَفِّهِ إلى شفَّتيه وراح ينفُخُ ببطء. عبثاً
أعادهما إلى العُشِّ وأطبق زجاج النافذة .. رفع رأسه إلى أعلى
الجدار. لو أن للنافذة ستارة؟ كان لهذه النافذة ستارة! أجهش.

«تَحَالَفُ الْأَضْدَادُ ضِدَّ قَلِيلِ حِيلَةٍ»

لم أقوَ على النظر في عيني منيرة. هي لم تعد موجودة حتى
أفعل، أقول أو أبرر. منيرة منذُ أمس في بيت أهلها في حين مكثتُ أنا
في شقتنا أعصرُ رأسي مرَّةً، وأضرب صدري بقبضتي مرَّات. أراوُحُ
بين فكرةٍ وحدثٍ كلاهما يبدو مُقنَّعاً إزاء هواجسي. أغمضُ عيني.
لن يعودا. لن يعودا. أكرِّر القولَ لعلَّ هاتِفًا في صدري يُجيب. لا
يُجيب! لن يُطِيلَا الغياب، أليس كذلك؟ بابُ الشَّقَّةِ الوحيد سوف
يُطَرَّق. نعم، سوف يُطَرَّق. أفتحه. منيرة تُمسِكُ بيدي الصَّغيرين.
ينظران إليَّ بعيونهما الشَّهلاء يتسمان. أجلسُ على رُكْبتي عند عتبة
الباب أعانِقُهُما. أطوِّقُ كلاً منهما بذراع. أتشمُّ رانحتهما. أرفعُ
رأسي لـ منيرة أعتذر. أقسمُ أن ما حدث لن يتكرر. أنتفضُّ إثر فكرةٍ
عابرة. تختفي منيرة. يختفي الصَّغيران ويوصدُ بابي من جديد. أنا أكره
أن أفكر. هذا الشيء الذي هنا، مصدرُ الإدراكِ فاسٍ، صادمٌ بشعٍ لا

يُلَطِّفُ حَقِيقَةً، ولكن.. من أين للمرء أن ينأى بطمأنينته عن صُراخ عقله
إزاء إيمانه الأخرس؟! شيءٌ ما في هذا العقلِ أضدّه، أفكارٌ أُسميها
وَسَاوِسُ تَدْفَعُنِي لِلْجَنُونِ. فتحتُ بابَ شَقَّتِي لا أَلُوِي على شيءٍ إلا
إدراك السَّاحِلِ قُرب المرسى. أدعكُ عيني أُرِيل ضبابَ الدمع عنهما.
إبكِ يا أنتِ! إبكِ وانتظر شيئاً لن يعود أبداً!!

هناك، غاصت قدماي عند التقاء الرَّمْلِ بالماء، بكيت. بكيتُ
غياب زينة ورحال، وضعف إيماني بعودتيهما، وقسوة عقلي.

منوال

.. يُقَطِّبُ حاجبيه. يتذكّر. طَوْقُهُ أبوه بذراعه يسحبه نحو السَّاحِلِ
مثل خرقَةٍ باليةٍ مُبْتَلَةٍ. جباناً تركه على الرَّمْلِ في شبه إغماء. انحنى
الأُمُّ على صغيرها تَلْفُهُ بمنشفةٍ وهي تبكي. استفرغَ الماء المالح على
جسده. الماء المالح حليفُ الشؤم..

«أفعى الدَّارِ لا تخون»

في غُرْفَةِ منيرة التي حسيبُها مؤقتة، في بيتِ أهلها، كنت أجلسُ
مُقرِفَصاً في الرُّكْنِ صامِتاً. تركت منيرة الدُّمَيَّتَيْنِ البلاستيكيَّتين على
مرتبةٍ جلوسٍ أرضية. أطبقت الدُّمَيَّتَانِ أجفانهما فورَ ما صارنا في
وضعية النَّومِ. رحتُ أحملقُ في وجهيهما. تذكَّرتُ صَغِيرَيَّ وقتَ
كانا رضيعين. لمحتُ شبهً بينهما وبين. طردتُ الفكرةَ من رأسي.
كل الأطفال الرُّضَّع يتشابهون، حتى الدُّمَى. أدرتُ وجهي نحو
البابِ لِئلا أوغل النظرَ في الدُّمَيَّتَيْنِ. شيءٌ يشدُّني للالتفاتِ إليهما.

أدرت وجهي صوبَهُما ثانية. لماذا يا منيرة؟ كنتُ أُحدِّثُني وأنا أراقِبُ غيابها مع خيالانها. سوف يعودُ الصَّغيرُ ان عاجلاً، ما الداعي لهذين الشَّيْئَيْنِ؟ انتفضتُ حينما شدَّني ظلُّ دخلِ الحجرة يسبقُ صاحبه. التفتُّ إلى الباب المُشرع. فتحتُ عينيَّ على اتساعِهما أنظر إلى فايقة التي تعرَّفْتُها فورَ رؤيتها. نحولُ دلوًا. تُشبهُ صورنها القديمة لولا عصا خشبية تتوكأ عليها، وخصلات بيضاء لا جناء تلوُّنُها نظهرُ من تحت مِلْفَعِها، وانفراجة خطم الأرنب التي بدت أكثر اتساعًا ورخاوة. رمقتني تبسم. لم تُبدِّد ابتسامتها حُزن وجهها، ولم تُفزعني الابتسامة هذه المرأة. لم تَفُقه بكلمة. أسندت عصاها إلى الجدار ثم أقعت إلى جوار منيرة والدُّمَيَّتَيْن تفلُّ قماطيهما المُسَخَّيْن. تنزعُ لباسَهُما. تتناولُ قطعة قماشٍ من الدلو يتصاعدُ منها البخار. تعصرها قبل أن تُنظف الجسدين البلاستيكيين. حول الرقبة، أسفل الإبطين وبين الفخذين. تُقَمِّط الصَّغيرَين بقماشٍ نظيف. داهمتني ذكرى ابتنها على نحوٍ مُفاجئ. نظرتُ إلى منيرة الصَّامتة. أُنذِرُ وعدي لها في أيام زواجنا الأولى. لا امرأة من بعدك! أُنذِرُ سؤالها. ومن قبلي؟ أُنذِرُ سكوتًا أحاطنا وصورة فتاتي الأثيرة لا تُبارح مُخيلتي. حملت فايقة دلوها تتكى على عصاها تسبقُ ظلَّها إلى خارج الحجرة. تبعُها بعينيَّ والخرس يُخبط شفتي. أُنذِرُ كلام أسي. فايقة أصيلة وفيَّة للدار. جاءت من وراء سنوات القطيعة كما لو أنها لم تَغِب يومًا. جاءت إلى منيرة تؤدي دورًا لا تتقن سواه؛ أن تكون قريبة من أهل الدار.

عند السَّاحِل قريبًا من المرسى أرسلتُ نظري بعيدًا وراء آمالي.

سوف يعود الصَّغِيرَانِ، تحملهما منيرة ونطرق باب سُقَّتِي الباردة،
يدخلون حاملين الدفء معهم. نعم، سوف يطرقون بابي.
وما دامت فايقة لا تتغيَّر، أصيلة، وفيَّة للدَّارِ لا تخون، فإن حَمَام
الدَّارِ..

منوال

.. مرَّ قبضتُهُ المرتعشة ببطء. فزعت. طارت فيروز من دون أن
تصفعه بجناحها كما تمنَّى. حال غروب الشَّمْسِ دون ابتعادها. لاذت
بسعفة النحلة المضطربة. نثر البذور في الهواء غاضبًا. ضرب الدكَّة
بقبضتيه. طيري يا جبانة!
.. أفزعته منظره في مرآة الحمام. وجهه باهت بين رماديّ وأزرق.
إنه البرد! أوجدَ لنفسه تبريرًا. ألصق ذراعيه إلى جسده فيما يُشبه وقفة
عسكرية. نفخ صدره. غروووغ.



صباح ثالث

145

«... ابتلعتُهُما الزُّرْقَة. لم يُعد يراهُما. أخذَ يُلَوِّحُ بيديه. يصيحُ بهما: رَحَّال.. زينة! ثم أطبقَ أسنانه على طرفِ ثوبه وراح يركضُ كالمجنون!..»

.. تنهَّد وهو يشاهدُ حمامةَ الأثيرة تحشرُ منقارها في منقار أحد الفرخين، لعلهُ رَحَّال الجديد، كأن أمَّهُ تُجبرُهُ على الأكل. جسدُ فيروز يهتزُّ بعُنف تبذلُ كلَّ ما في وسعها لتودعَ سائلِ جوفِها في جوفِ الصَّغير. الفرخُ يحركُ جناحيه الورديين العاريين، إلا من زغبِ أصفر، كأنما يَنازِعُ ويلفِظُ أنفاسه مُستفرغاً روحه..

«اتكأء رجاءٍ على صُدفتي»

لم أكُف التفكير في إخوتي ساعةً بعدما رحل بهم والذي الذي صارَ يعود بمفرده بين حين وآخر. أتراهم يعودون؟ أمي في المطبخ تعملُ صامتة، وغناؤها لم يُعد. تردَّد أحياناً ترنيمَةً تتخللها تنهَّداتٍ وأثات. فابقة مع ابتئها تنظفان الحوش وتعلفان الغنم والطيور. أنا مستلقٍ في زاوية البهو، في مكاني الأثير أسفل السَّلَم أُحدثني وأنظر إلى صورة والدي وإخوتي في الجدار. أتذكرُ وقتَ قام والذي بتعليقها. سألتُه أين أنا؟ لم يكثر لسؤالي.

أُشبح ببصري عن الصورة، وذكرى يوم تعليقها، وأعاود السؤال. أتراهم يعودون؟ ولأن أحداً لا يملكُ إجابةً كنت أربطُ أمنياني بالصُدَف

مضمونة الوقوع. سوف أعدُّ إلى عشرة، وإذا ما قرقت الأواني في مطبخ أمِّي؛ يعودُ إخوتي ذات يوم.

واحد.. اثنان.. ثلاثة..

يرتفع هدير الماء في المطبخ. أنباطاً بالعدِّ.

أربعة.. خمسة.. ستة.. سبعة..

تُصدر الأواني قرعَةً تختلس مني ابتسامة اطمئنان. أطمعُ بمحاولة أخرى تُبدِّدُ شكوكي تقطع بالآمالِ مخاوفي.

أسألني مرَّة أخرى: أتراهم يعودون؟

واحد.. اثنان.. ثلاثة.. أربعة..

أرهِفُ السَّمْعَ أصغي. لا شيء. أواصل العدَّ.

..ثمانية وتسعون.. تسعة وتسعون.. مثلاً!

منوال

.. الطقْسُ ما زالَ بارِداً. أمعنَ النظَرَ في الفرخين المرتعشين،

بوَّده لو يحملهما إلى داخل غرفته يمنحهما شيئاً من دفء، لكن الغرفة

باردة أيضاً!

«إمدادُ الوَهْمِ ذخيرةُ اليأس»

كانت زيارة والدي الأولى، على ما أذكر، بعد أسابيع مُدَّ حَمَلٍ

أمتعته ورحل. نهَلَّلَ وجهي أمام وجهه المكفَّهر. أمَّنِي نفسي بأن

يكشِفَ الباب عن أربعة أرباعٍ لِـ عزوني الغائبة. ألقى والدي السَّلَامَ

من دون أن ينظر إليَّ يسألُ عن أمي. أشرتُ له صوب حُجرتها، في

حين رحتُ أجري نحو الباب أنوشل إدراك بُغيتي. لم يكن وراء الباب سوى حمار يحملُ سلال الثمر وأكياس الدقيق والحبوب جاء بها والذي، من الشوقِ القريب، نأدية واجبٍ لا أكثر.

وقفتُ وراء والذي عند عتبة باب حجرة أُمِّي. كانت مُغمضة العينين صفراء شاحبة هذها المرض. لم يبدل غمَازة خدّها الأيمن أثر. انتبهتُ لِقصر شعرها، مفروق في المنتصف، يسدل إلى ما دون شحمتي أذنيها الخاليتين من الأقراط. عمتي تزورنا باستمرار منذ مرض أُمِّي. تقرأ القرآن من دون صوت وتنفثُ قُرب وجهها. فايقة إلى جوارها تُزيل الكمّادات عن جبينها. تعصرها وتغطّسها في الماء مرة تلو أخرى. همست أُمِّي، بصوتٍ لا أعرّفه، من دون أن تفتح عينها. أنت جنت؟ اكتفى والذي يجيبها سؤالاً وهو يطوفُ ببصره أرجاء الحجرة. كيف أنتم؟ والذي لا يسأل عني وعن عمتي إنما يُحدّث أُمِّي بصيغة الجمع، من دون أن ينظر صوبها بعينه الحزبتين، تاركاً مسافةً بينه وبينها تُجنّبه الاقتراب. تجاوزت أُمِّي سؤاله بسؤال. هل جنت بالصغار؟ فليث والذي ما يُشبه ضحكة. صغار؟ لم يعودوا صغاراً. التفت إليّ يُشيرُ بذقنه. لديك ولدك الأشهل، صغيرٌ لن يكبر أبداً. لم ألتفت إلى قوله والذي، ولم بعد السؤال القديم يورّقني؛ لماذا تركني؟ بقدر ما كان صوت أُمِّي الجديد يشغلني. ثقلتُ أنة. ينتهد والذي. لا ينظرُ ناحيتها وهو يقول بحزنٍ فسل يُداريه. اتركي فراش المرض، فإنه لا يمنحك إلا أقصر الطرق إلى الموت. فتحت أُمِّي جفניה بصعوبة. نظرت إليه تكرّز على أسنانها. لفظت عينها دمعاً كأنما تبصقُ في وجهه. بترت أطرافي.. بترت أطرافي يا أزرق. أشار والذي

نحوي وهو يُجيبها. ما زال قلبك في صحة جيدة. تقترب عَمَّتِي منه تُحَدِّثُهُ عن أُمِّي هَامِسَةً. قَصَّتْ جَدِيلَتِهَا نَازِرَةً: لا أَطِيلُهُمَا إِلَّا بِهِمَا! قالت زوجتك عن جَدِيلَتِهَا وهي تُمَسِّكُ بِالمَقْصَصِ. هذه لـ غَادِي وِرابِحَةٍ، وهذه لـ عَوَّادٍ وَسَفَّارٍ. تَمْلَمَلُ والدي في وقوفه. دموعه تبدو نَشَارًا في تعابير وجهه الفاسية. استدركت عَمَّتِي تقول: زوجتك في حاجة إلى مستشفى. استندار يُنادي فايقة، تتبعه تُنْزِلُ حَمُولَةَ الحِمَارِ. تُطَبِّقُ أُمِّي جَفَنِيهَا. تَجْمَعُنَا الجَنَّةُ يَا فَرِيخَاتِ القلب. نظرتُ إلى السَّقْفِ أَضْمُ كَفِّي إلى بعضِهما أسفل ذقني. يا رب!

مَضِيْتُ إلى المطبخِ كَأَنَّمَا أَتَوَسَّلُ جُودَانَهُ أَنْ تَمْنَحَنِي صَدَى لَصَوْتِ أُمِّي الَّذِي أَعْرِفُ. أَقْتَعِدُ كَرَسِيًّا خَشَبِيًّا قَصِيرَ القَوَائِمِ، أَتَذْكُرُ أُمِّي، حِينَمَا كَانَتْ فِي صَحَّتِهَا، فِي مَوْضِعِي تَغْسِلُ مَلَابِسِي قَبْلَ الشُّرُوقِ. لَطَالَمَا كَانَتْ تُغْنِي بِصَوْتِ رَخِيمٍ يَتَسَلَّلُ فِي رَدَاهَاتِ الْبَيْتِ الْعَرَبِيِّ:

نَحْتُ أَنَا لَوْ أَبْرَا، نُوحُ الْحَمَامَةَ، نَحْتُ أَنَا لَوْ أَبْرَا

مَا يَطْبِقُ الصَّبْرَا، يَا مَلَّ قَلْبِي، مَا يَطْبِقُ الصَّبْرَا

سَأَلْتُهَا ذَاتَ يَوْمٍ. أُمِّي! لِمَاذَا يَنُوحُ الْحَمَامُ؟ تَجَاوَزَتْ سَوْأَلِي. عَدَنِي أَلَا تَغِيْبُ أَنْتَ أَيْضًا يَا مَنَوَالِ، وَإِنْ غَبْتَ فَكُنْ مِثْلَ حَمَامِ الدَّارِ لَا يُطِيلُ غِيَابًا. لَذْتُ بِصَمْنِي قَبْلَ أَنْ أُجِيبَ. أَعِذْكَ. اسْتَطَرَدْتُ. لِمَاذَا يَنُوحُ الْحَمَامُ؟ ابْتَسَمَتْ لِي مُضَيِّقَةً عَيْنَيْهَا تُفَكِّرُ. أَجَابَتْ. اسْأَلْهُ! وَكَلَّمَا ذَهَبْتُ إِلَى الْحَمَامِ فِي السَّطْحِ اسْأَلْهُ سَبَبَ نَوَجِهِ، أَلْجَمْنِي سَحْرَ هَدِيلِهِ عَنِ السُّؤَالِ.

خَرَجْتُ مِنَ الْمَطْبَخِ الْأَخْرَسِ. لَا أَحَدٌ غَيْرَ قُطْنَةِ يُنْصِتُ إِلَيَّ

شكواي ويُصغي إلى كلماتٍ خوفي على أُمِّي ومُقتي لوالدي.
 ركضتُ إلى حوشِ الغنم حيث فاتنتي، بنت فابقة، تُقعي أرضًا
 تكشِفُ عن ساقبها المنفرجتين. تخلطُ الحبوب في وعاءٍ كبير؛ ذرة،
 شعير، حبات حُصص وبذور دَوَّار الشمس. أحملقُ في تفاصيل جسدِها
 من وراء الباب الموارب. يدفَعني الفضول لاكتشاف غير المألوف في
 جسدي. أغيبُ مع اتِّساع فتحة ثوبها عند الصُّدر. أُمعنُ النظر أبحثُ
 عن شاماتٍ أربع تجمَّعت فوق نهديها الأيسر. أنا أحبُّ قُطنة. هي
 تدري. هي تمنحني شيئًا مما أصبو إليه نظرًا. مُتعة اكتشافٍ جديد.
 تُحب «العَبْدَةَ» يا عبد؟! التفَّتُ إلى صاحبِ الصَّوتِ ورائي. كان والدي
 ينسُم حانقًا. مردُّ «العَبْدَةَ» إلى عبدٍ يأويها! راحَ يتظاهر بأنه بعدُ أوراقًا
 نقدية بين كُفِّه. ما اشتربتهما من أجل شيء إلا خدمتهما! كانت كلمة
 عبدٍ مألوفة مثل أي كلمة دارج استخدمها كلَّ يوم، هي سِمَةُ أولئك
 الذين يشربهم والدي، كما يقول، بحرَّ ماله. غير المألوف هو أن يكون
 هناك عبدٌ جديدٌ، لا أعرفه، ينافسني حظوة قُطنة، تميلُ إليه، يأخذها
 بعيدًا. لماذا نصيرُ كلَّ الطُّرُق إلى فراق؟

عاد والدي إلى جزيرته قاطعًا وعدةً بزيارةٍ في أجلٍ لا يُسميه
 أبدا. قرفصتُ أسفل السِّلَمِ ألوذُ بضيق المكان كما أقترُبُ مني أكثر.
 نهجسُ أشياء في صدري. سوف تُشفى أُمِّي، تعودُ أطرافها الأربعة كما
 كانت، وتبقى قُطنة قريبة دائمًا. ضمنتُ ساقِيَّ إلى صدري. أسندتُ
 جيني إلى رُكبتَي مُغمَض العينين أهمس بتعويذة حمام الدَّارِ وأفعاها
 مثل صلاة. أكرِّرُ القول أغذي إيماني أنكئ على أبوابِ ألفتها. عودة
 والدي زائرًا. استقرار المراكبِ الخشبية تُعانق أرضفة المرسى بعد

رحلاتِ أسفارٍ طويلة. طلوع الشمسِ تقذفُها أمواجُ الشُّروقِ بعد غيابها في الصَّحراءِ القصِيَّةِ غربًا. بزوغ نجم سَهيلٍ بشيرٍ المطرِ كُلِّ عامٍ في أوَانِه. عودة أسراب الطيور المُهاجرة؛ الِهْدُهدُ والخُضْبِرِي وأُمَّ سَالم والحَمَّامِي والزُّمَانِي والقُوبِيع تنثرُ أصواتها وألوانها ربيعًا، تبني أعشاشها وقتَ تَلَفْظُ الأرضِ كماها الذي أُحِب. مِزاجِ الشَّمْسِ حينما يلبِن وتحنو على الكائنات على غير عادة، اخضرار الأرض بفعلِ أوراقِ الحمِيزان وتَفْتُح بتلات النُّؤيرِ كأن شُموسًا صغيرة تحملُها سيقان دَقيقَة داكنة الخُضرة تكسِرُ يَسَّ البَرِّيَّة. حتى أُمَّ علي، دعسوقتي الحمراء المرقطة، كائني الأثير، لا تُطِيلُ غيَابًا ولا تنخَلَفُ عن موعِدِها نصحبُ فراشات الرِّبيع، نزورُنا نُكَمِّلُ ألوانَ لوحَةِ إِطارِها قوشِ المطر.

نَتَّ هواجسي روائحها المَحَبَّة؛ خُزَامِي، تربة رطبة، أريجُ عُشْبِي وفوحُ لِقاحٍ .. أَزَكَمْتُ أنفي رائحةً أَفْلَتَها جَسْدي أنستني صورًا غَصَّ بها رأسي. رَحْتُ أَضْرَبُ الهِواءَ حولي وعيني صوب بابِ حوش الغنم خشيةً مرور قُطْنة. هربتُ رَاكِضًا إلى المطبخ.

منوال

.. اقترب منوال من نافذته المفتوحة مُحترسًا. استدار ببطءٍ يواجهُها بصدرة. كان مؤمنًا بأنها سوف تحمي صغيرها وقد خرجا من البيضتين وتعرَّفت إليهما وألفتهما. مدَّ كَفَّهُ مبسوطةً بفتات الخُبْز. طارت فيروز. بهتَ الكهل. تعالي! ..

«كُلُّ الْأَلْوَانِ أَزْرَقُ»

سنوات مضت على فجيعة المرسى، وأنا أكتب وأكتب، وأكتب. لا جدوى. أنا الذي أفتعنتني بالتداوي بالكتابة، انصرفت عنها، صرت أحول كُرْأسة الرِّسْم والألوان إلى ساحلِ الفقد، أمضي أوقاتي أرسم ما يُشبهني وأرفع اللوحاتِ أواجهُ البحر. كُنْتُما تُوجَّانِ ما أرسم. ما بالكما لا تُجيباني. الله! حلوة يبه. يمرُّ الناسُ من حولي، تُراوح ملامِحُهُم بين خوفٍ وشفقة. يهمسُ أحدهم لصاحبه. مسكين، مجنون. أخفضُ ذراعِي أتملِّى في اللوحة الزَّرْقَاء. رؤوسُ مُزدوجة وعيونُ جاحظة وأطرافُ مبتورة، هذا لا يُشبه ما كنتُ أرسمهُ للصَّغِيرين. هذه رسومٌ مُنفرة تُشبهني أكثر مما أبدو عليه. أدير للبحرِ ظهري. يتناهى إليَّ صوتُ منيرةٍ من أَمْسٍ بعيد. اركض. اركض يا جبان! أطأطئ. حتى الرِّكض لم يعد مُمكنًا يا منيرة. سوف أركض، لو أن الرِّكض يُفضي إلى مكان!

منوال

.. اقتطع الكهل جزءًا من الخيط، عقد طرفه في منتصف دُبوسٍ شالِه قبل أن يحبو نحو دَكَّة النافذة. حملَ أحدَ الفرخين في كفِّه يتحقَّق من جنسه.

«الْأَسْمَاءُ عَتَبَاتُ الْخُلُودِ»

استلقت منيرة على ظهرها في سرير العيادة مكشوفة البطن. لحافها الأبيض يُغطي ساقها. راحت المُمَرَّضة، التي صارت تعرفنا

لكثرة ما تردّدنا على العيادة، تدهنُ بطنها بمادّة مُرلّقةٍ أثناء ارتداء الطبيب قفّازًا أزرق يُمسِكُ بجهازٍ بحجم قبضة اليد، يُمرّزه على بطنها ببطء. رحنا نُحمِلُ في الشّاشة إلى يسار السّرير، نتطلّع لمعرفة جنس ما تُخفيه في أحشائها.

كان مجيء التّوأمين بعد سنوات انتظار وتدخلٍ طبّيٍّ ومُلازمة منيرة السّرير بمنزلة مكافأة لم نكن نحلمُ بها، نحن اللذان ما حلمنا بأكثر من مولود؛ ذكرًا كان أم أنثى، لا يهم. طفرت الدّموع من عيني منيرة وهي تُعانقني وقت أخبرنا الطبيب أوّل مرّة بحملها. لن أتحرك من فراشي إلى حين ولادتي. قالت وهي تعصرُ كَفّي. غالبتني دموعي وأنا أفكّر في حياة مُقبلة. سوف أبقى إلى جانب الفراش وأكون أطرافكِ الأربعة. تحشرج صوتي وأنا أحدثُها وفي خلدي صورة أُمّي على فراش المرضِ تلوّم والدي. بترت أطرافِي! كنتُ أشعر بعناقِي لـ منيرة أني أعانق عائلةً توشك أن تكون، مُتحرّراً من كلّ خسارات عائلةٍ كانت.

منذ دخول منيرة شهرها الرّابع ونحن تردّد على العيادة لمعرفة جنس التّوأمين من دون فائدة. اتخذ كلّ منهما حرفاً على الشّاشة المغبّسة. A وB. سرت قشعريرةٌ في جسدي وقت أسمعنا الطبيب خفق قلبيهما في المرّة الأولى. يبدوان في صحّة جيّدة. حال الحبل السّري دون نيّقتن الطبيب. لعلّ A ذكرًا، أو ربّما ذلك الشيء المُتدلي لا يعدو كونه جزءاً من الحبل السّري. الأشياء ليست كما تبدو دائماً. يضحك. يُواصل تحريك جهازه يُحمِلُ في الشّاشة. يستحيلُ تحديدُ جنس B وهو مُطبّقٌ فخذيه على شيء. خرجنا من دون إجابة. لفنا

الضَّمْتُ في السَّيَّارَةِ ووجِبْتُ قَلْبِنَا يُحَاكِي خَفَقَ الصَّغِيرِينَ فِي رَأْسِنَا.
فِي الزِّيَارَةِ الثَّانِيَةِ اسْتَمَرَّ B فِي إِخْفَاءِ عَضْوِهِ بَيْنَ فَخْذَيْهِ الْمُطْبِقِينَ فِي
حِينَ أَدَارَ لَنَا A ظَهْرَهُ.

كَانَتْ تُزَعِّجُنِي الْإِشَارَةُ لَهُمَا بِحَرْفَيْنِ كَأَنَّهُمَا أَيُّ شَيْءٍ، وَكَنْتُ
أَنْتَظِرُ بِفَارِغِ الصَّبْرِ التَّعَرُّفَ إِلَى جِنْسِيهِمَا لِأَسْتَعِيزُ بِالْإِسْمِ عَنِ
الْحَرْفِ. فِي زِيَارَتِنَا الثَّالِثَةِ لِلْعِيَادَةِ صَارَ الْأَمْرُ أَكْثَرَ وَضُوحًا. ضَحِكَ
الطَّبِيبُ يُشِيرُ إِلَى مَا بَيْنَ فَخْذَي أَحَدِهِمَا. ذَكَرَ كَمَا هُوَ وَاضِحٌ. التَفَتْتُ
إِلَى مَنِيرَةٍ بِاسْمَةِ وَقَدْ تَخَضَّعَتْ عَيْنَاهَا وَاحِمَةً أَنْفُهَا. رَحْتُ بِنَظَرِي
أَمْعُنُ التَّحْدِيقَ فِي الشَّاشَةِ. هَمْسْتُ. رَحَّالٌ! قَرَّبَ الطَّبِيبُ سَبَابَتَهُ إِلَى
مَا بَيْنَ فَخْذَي الْجَنِينِ الثَّانِي. التَفَتْتُ إِلَيْنَا يَسْأَلُ كَمَنْ يُجِيبُ. وَاضِحٌ؟
زَمْتُ مَنِيرَةَ شَفَتَيْهَا وَقَدْ أَزْدَادَ أَنْفُهَا احْمِرَارًا. غَطَّتْ وَجْهَهَا بِكَفَّيْهَا
تَنْخَرُطُ فِي بَكَاءٍ. ابْتَسَمَ الطَّبِيبُ فِي حَيْرَةٍ عَاقِدًا حَاجَتِيهِ يَسْأَلُهَا عَنْ
حَالِهَا وَقَدْ عَلِمْتُ بِمَا كَانَتْ تَجْهَلُ. كَيْفَ أَنْتِ الْآنَ؟ أَجَابَتُهُ. زِينَةُ.
لَمَعَتِ الْكَلِمَةُ فِي رَأْسِي وَاسْتَطَعَمْتُ لَفْظَهَا وَأَنَا أَقُولُ: الْوَلَدُ رَحَّالٌ،
وَالْبَنْتُ..

منوال

زِينَةُ.. زِينَةُ! رَدَّدَ مَنَوَالٌ وَهُوَ يَنْشِجُ.

..

.. تَسَمَّرَ أَمَامَ مِرَآئِهِ. أَفْزَعَتْهُ صُورَتُهُ عَلَى وَجْهِهَا وَهُوَ يُحَدِّقُ فِيهَا.
مَنْ أَنْتِ؟ هَا؟ أَطَالَ النَّظَرَ فِي انْعِكَاسِهِ. بَشَرْتُهُ شَاحِبَةً دَاكِئَةً وَهَالَاتٍ
سُودَاءَ تَحِيطُ عَيْنِيهِ الْحَمْرَاوِينَ بِلَوْنِ الدَّمِّ، وَشَعِيرَاتِ رِمَادِيَّةٍ طَالَتْ فِي

ذَقْنِهِ. رَفَعَ كَتِفَيْهِ نَافِخًا صَدْرَهُ عَاقِدًا حَاجِبِيهِ. أَطْبَقَ جَفْنَيْهِ، ثُمَّ بَاعَدَ بَيْنَ
ذِرَاعَيْهِ يَضْرِبُ بِهِمَا الْهَوَاءَ كَأَنَّهُ يُحَلِّقُ مُبْتَسِمًا. صَارَ يَذْرُوعُ الْحَمَامَ يَدَوْرُ
مُغْمِضًا عَيْنَيْهِ. حَمَامُ الدَّارِ لَا يَغِيبُ.. لَا يَغِيبُ يَا أَزْرَقُ.. غُرُووُغ!

* * *



صباح رابع

«.. نهض عن الأرض. وقف على أطراف أصابعه ينظر بعيداً. ابتلعتهما الزُّرقة. لم يمد يراهما. أخذ يُلَوِّحُ بيديه. يصيحُ بهما: رَحَّال.. زينة! ثم أطبق أستانه على طرف ثوبه وراح يركضُ كالمجنون!..»

جاء كابوشه صامتاً إلا من نداء آتِه للصَّغِيرَيْن، وصوت نغم قديم يراوح بين هديل وأغنية تتردّد في ردهات البيت القديم. شَخَصَتْ عيناه ينظرُ إلى سقفِ غرفته. أمي!؟ ..

«لوعَةٌ بهيَّة»

صوتها شجيّ عذب. يتسلّل من المطبخ القديم. ينتشر في البهو غير المسقوف يُصافح النسمات الباردة. أطلّ من السّطح على بهو البيت شارد الذّهن. أمي لا تتحدّث كثيراً. أمي تُغني دائماً. أنصتُ إلى صوتها في حين هديل الحمام ينزاید من حولي. أمرّ نظري على الأشياء الصامئة في بهو البيت العربي القديم. جرّة الماء في الزاوية. بساط الحصير. الصورة العائلية الناقصة في الجدار. صندوق من خشب الصّاج مُطعّم بمسامير ونقوشٍ ذهبية يستريحُ فوقه وعاءان؛ لِدِيسِ الثّمرِ أحدهما والآخر للخلّ. سجّادة وثوب صلاة. مسانيد صوفيّة ومنقلة فحمٍ وقدرٌ معدنية، وبثر مجنونة تمنح ماءً عذباً متى ما اشتهت وماءً مالِحاً إن تعكّر مزاجُها.

كُلُّ الْأَشْيَاءِ صَامِتَةٌ فِي الْبُهْوِ تُنْصِتُ إِلَى غَنَاءِ أُمِّي. أَغْمَضْتُ عَيْنِي
أَمَعْنِ الْإِصْفَاءِ:

لَوْ رَجَعَ مَضْنُونِي، نَذَرًا عَلَيَّ، لَوْ رَجَعَ مَضْنُونِي

ثُمَّ أُعْيِدَ شَهْرًا، وَأَصُومُ عَامَيْنِ، ثُمَّ أُعْيِدَ شَهْرًا

نَحْتُ أَنَا لَوْ أَبْرَأَ، نُوحِ الْحَمَامَةُ، نَحْتُ أَنَا لَوْ أَبْرَأَ

لَمْ أَعُدْ أَسْأَلُ نَفْسِي مَاذَا تَقُولُ الْأَغْنِيَةُ؟ لِمَاذَا تَنُوحُ أُمِّي؟ لِمَلَّهَا
تَبْرَأُ مِنْ مَاذَا؟ وَمِمَّ مَلَّ قَلْبُهَا الَّذِي لَمْ يَعُدْ يَطِيقُ صَبْرًا؟ كُنْتُ أَصْغِي إِلَى
الصَّوْتِ وَحَسَبَ. غَنَاءُ أُمِّي يُشْبِهُ بَكَاءَ شَجَبًا. فَتَحْتُ عَيْنِي. التَفْتُ إِلَى
الْحَمَامَاتِ الْمُنْتَشِرَةِ فِي السَّطْحِ. لِمَاذَا تُغْنِي أُمِّي دَائِمًا؟ مَرَّتْ وَاحِدَةً
مِنْ فَوْقِي تُلْقِي إِجَابَتَهَا: اسْأَلْهَا! مَضَيْتُ أَسْرَعُ الْخُطَى نَحْوَ السَّلَمِ.

منوال

.. استدار يُطَلُّ بِنَصْفِ وَجْهِهِ. يُطِيلُ النَّظَرَ إِلَى فَيُرْوِزُ الْمُنْشَغَلَةَ
عَنَاءً بِصَغِيرِهَا. الْأُمُومَةُ أَمْرٌ عَظِيمٌ. وَلَكِنْ! لِمَاذَا تَخَافُ الْأُمَهَاتُ؟ أَنَا
أَكْرَهُ الْخَوْفَ. هُوَ لَا يَتَذَكَّرُ مِنْ أُمِّهِ إِلَّا صَوْتَهَا؛ غَنَاءٌ أَوْ خَوْفًا..

«الغناء زاد الروح في الأيام الحزينة»

وَقَفْتُ عِنْدَ بَابِ الْمَطْبَخِ أَحْمَلُ سَوَالًا حَمَلْتَنِي إِيَّاهُ الْحَمَامَةُ لِأُمِّي.
لِمَاذَا تُغْنِي دَائِمًا؟ هَمَمْتُ أَنْجَاوِزَ عَتَبَةِ الْبَابِ دُخُولًا لَوْلَا خَشْيَتِي مِنْ
أَنْ أَقْطَعَ غَنَاءَ أَحِبِّهِ. أَجَلْتُ سَوَالِي. رَحْتُ أَصْغِي. أَمَعْنُ النَّظَرَ فِي
تَفَاصِيلِ أُمِّي مُتَفَرِّجَةً السَّاقَيْنِ أَمَامَ الثِّيَابِ الْمُنْقَوَعَةِ فِي طَسْتِ الْغَسِيلِ.
تَرْفَعُ صَبِيئَةً نُحَاسِيَّةً، كَأَنَّمَا تَمْسِكُ دَقًّا، تَضْرِبُ عَلَى ظَهْرِ الصَّبِيئَةِ

بإيقاعٍ متظلم. بدت في عالمٍ آخر بعيد. ثوبها واسعٌ دائماً أسود، يرتفع
إلى منتصفِ ساقِها الملطَّختين بالرغوة. شعرها مفروقٌ في منتصفِ
رأسِها. جدِلتاها طويلتان تنتهيان عند خاصرتها. أُغِيبُ في ملايحِها؛
دِقَّةَ أنفِها، غَمَّازة خدَّها الأيمن وقتَ تبتسم، اتساع جبينها وانحناءة
حاجبيها. تمايل بجذعِها كالغائبة عن وعيها، مُغْبِضَةً عَيْنِها، تهزُّ
رأسها تجاوباً مع ضرباتها على الصبينة ولحن أغنيها الشَّجي. تُغني
كأنما تنثر سِحراً في المكان الموحل صمّاً بُصغي إلى غناء المرأة
الحزينة. كيف للحزن أن يتخذ من الجمال ثوباً على هذا النحو من
السحر؟! وكيف للحزن إياه أن يُسقط أُمِّي، بعد ذلك، طريحة الفراش؟

عبّروا مضموني، يا أهل المراكب، عبّروا مضموني

يا نظير عيوني، ودّعتك الله، يا نظير عيوني

انصرفتُ عن فكرة السؤال عن سبب غنائها، ما دامت الإجابة
عند أهل المراكب. انبثق في رأسي سؤال آخر. هل يعبر إخواني البحر
عودةً مع أهل المراكب في الأغنية؟ أحسستُ بحاجة مُلِحَّة للحديث،
لكنني لا أنوي قطع غناء أُمِّي التي بدت لي كأنها تُمارِس طقس عبادة.
لا أحد يُبادلني الكلام في البيت القديم. أدتُ ظهري لأُمِّي الغائبة في
مطبخها. ردّدتُ في سرِّي: قُطنة.

منوال

.. عيناه مفتوحتان على البعيد لكنه ينظرُ إلى ما يومضُ في رأسه؛

سفينة عملاقة توليه مؤخرتها تمضي مُبحرةً عند تلاقي الزرقتين..

«فتق في ثوب حقيقة ورُقعة كَذِب»

أشاق إلى الألوان في ثياب أُمِّي. مسحت ابنة فائقة على رأسي وهي تُنصت إلى بوحى. مضى وقت طويل وأُمِّي تلبس السَّواد ولا تحلّ جديلتَيْها، تنوح مثل الحمامة في أغنيتها وتتحرى خيراً مع أهل المراكب التي تعود في كلِّ مرّة من دونهم. نظرت قُطنة إلى عيني صامِتة. متى توقفت أُمِّي غناءها الحزين وترندي الألوان ثانية؟ قُطنة لم تزل تنظر إليّ، لكن بشيء من حُزن. هربت بنظري عن نظرتها مُطْرِقاً. أمسكتُ بعود برسيم يابس. رحتُ أرسم خطوطاً في الثراب بين قدمي. منوال! لن تعود أُمّتك كما كانت إلا بعودة إخوتك! اغرورقت عيناى. وهل يعودون؟ نهضتُ تنفضُ الغبار وأعواد البرسيم من ثوبها. أَلستُ تقول إن حمام الدار لا.. لم أمهلها تُكْمِل. أنا لا أقول! قُطبتُ حاجبيها تستفهم. أشرتُ إلى صدري. شيء هنا يقول. أسألني لا تكفُ حركتها في رأسي. لماذا غادر بهم أبي؟ تخصّرت وهي تنظر إليّ مُشفقة. أبوك؟! اندفعتُ أَلقي بسؤالٍ آخر. لماذا لم يأخذني معه؟ أطلقت زفرة طويلة أعقبتها بـ: بقاؤك مع أزرق مرث، وطرديك أمام الناس أشدَّ مرارة! لم تُمهلني أفوه بكلمة. أولتني قُطنة ظهرها مُبتعدة. رحتُ أُحدقُ فيها وهي تمايل شارِد الذّهن.

منوال

.. ارتمى بظهره على سريره وأطال النظر في السَّقْف. لماذا أنت صامِتة هكذا؟ ها؟ أنت تعرف كلَّ شيء.. كلَّ شيء. أغمضَ عينيه.

«اسمها فيروز»

فتحت عيني بصعوبة بسبب جنون الغبار. أخذني والذي معه إلى المقبرة فور عودته من الجزيرة مضطرباً. أخوالك ينتظرون. من الذي مات؟ لم أسأل. أحكم والذي لثام وجهه. حث خطاه نحو رجال يمضون نحو وجهةٍ مُسرعين. كنت أدري أنه يومٌ صعب مُذ أخبرني بئزنا المجنونة بملحها فجرًا. أين إخواني؟ سألته. يقطعون البحر عائدِين، سوف يلحقون بنا. أجاب من وراء لثامه. سألته. أئن نزور أمي في المستشفى؟ لم يُجر جوابًا. الصحراء ساكنة إلا من صفيح الرّيح وعزيف الرّمال وحفيف أشجار السّدر المنتصب بين شواهد القبور. وقفتُ أفركُ عينيّ الحمرأوين وطعمُ الغبار في شفتي. تخلفتُ عن الجمع أمامي. الرجال يحملون نعشًا، يخوضون في الغبار، يمضون نحو نلّ صفيح. بالكاد أميّزُ والذي من بينهم، بنحوه وطول قامته، رغم لثامه. أنزلوا النعشَ قرب حُفرةٍ وراء التلّ. أدتُ ظهري إلى الجنازة أنظرُ إلى السّماء. قيل لي إن من يموت يمضي صعودًا إلى الرّزقة هناك. من قال لي ذلك؟! لا أدري كم مكثتُ في شرودي حتى تبّهني أحدهم مُناديًا: يا ولدا! مضيتُ نحو الرّجال. راح بعضهم يُفرغ دلاء ماءٍ على التلّ الرّملي. كنتُ صغيرًا، وهي مرّتي الأولى في المقبرة. أنظرُ إلى أحشاء القبر وقد صارت تلاً. قريبًا يعود ثانيةً إلى الأسفل ويُسوّى سطحُ القبر بالأرض وينتهي كلُّ شيء. انحنى رجلان يخلطان الماء بالثّراب، يعجنان الطّين، يصنعان كرياتٍ يُناولانها والذي في الأسفل يرصّها حول جسدٍ ساكنةٍ القبر. مدّ أحدهم عصا المسحاة إليه يعاونه على الصّعود ما إن فرغ من عمله. أخذ الرجل يُبثّ ورقةً كرتونٍ تحمل كلماتٍ كنتُ أصغر من أن

أفقه حروفها. الورقة الكرتونية بعد ساعاتٍ صارت شاهداً رخامياً وقتِ
عدتُ مع والدي إلى المقبرة. كان يحملُ الشاهدَ الرُّخامي يمضي بين
القبور مُتَلَثِّماً. أبطأ خطوه قبل أن يتوقف على مبعدة أمتار من القبر وأنا
أطأطئ وراءه. دفعني توقفه المفاجئ لأن أرفع رأسي أنطلع لما يجري.
الغبار يلفُّ كُلَّ شيء. بالكاد أُمَيِّز ثلاثة رجال ملثمين وامرأة ترتدي
السوادَ تُغطي وجهها بجزءٍ من عباءتها، يُعمون حولَ القبر في صمت.
مضى والدي صوبَ الأربعة. أزال ورقة الكرتون، انحنى يثبتُ الشاهدَ
الرخامي مكانها في التراب، وكأنهم غير موجودين. اكتفى يهمسُ وسط
انشغاله: تأخرتم! تأخرتم كثيراً!! أفلتَ الرجالُ شهقاتٍ يعاندون بها بكاءً
في حين خارت المرأة في نشيجٍ مرير. نهضَ أحدُ الفتية، يبدو الأكبر،
يُصفقُ كفَّيه يُزيل غبار القبر العالقَ فيهما. أوماً للشائين والفتاة قبل أن
ينصرف. تبعهُ الثلاثة مُطرقين. جعلتُ أرواحَ نظري بينهم وبين والدي
وقد تأكد لي من يكونون، ولكنني سألت: من يكونون؟ أجابني بغير
اكتراثٍ وقد فرغ من تثبيت شاهد القبر: حمام الدار.

كنتُ أطيّق قبضتي الضَّغيرة على ثوبِ والدي أثناء عودتنا وأسأله
عن الحروف السوداء على صدرِ الشاهد الرخامي. أجابني بآياتٍ من
القرآن الكريم وهو يواصل المشي بين القبور؛ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ
ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً. أمسك لسانه عن بقية حروف نُقِشت
أسفل الآية. أحكمتُ أطباقَ كفِّي على ثوبه وأنا أشده. ماذا بعد؟ أسرع
مشيته وهو يُفضي كأنما يهربُ مني: فيروز ماضي حمدان. سقطتُ
على ظهري أغمضُ عيني على زُرقة السماء المغبرة.

منوال

.. بسطَ كَفَّهُ أمامَ وجهِهِ كاشفًا عن حُيُوبِ الشَّعِيرِ. أخذَ يَتَشَمَّمُهَا
 بِنَفْسٍ عميقٍ. سَرَتْ رَعِشَةٌ في جَسَدِهِ. نظرَ إلى صُورَتِهِ في المِراةِ
 يتَحَقَّقُ من كَوْنِهِ هُوَ. العُروقُ الحُمْراءُ تَتَشَرُّفُ في عَيْنِيهِ الشَّهْلَاوِينَ.
 بدا لِنَفْسِهِ شَخْصًا آخَرَ. انحنى على كَفِّهِ المَبْسُوطَةِ ثَانِيَةً يَلْتَهُمُ الشَّعِيرَ.
 يعَاوِذُ النِّظَرَ في المِراةِ وَهُوَ يَطْحَنُ الحُيُوبَ بَيْنَ أَسْنَانِهِ وَعَيْنَاهُ بِلَوْنِ
 الدَّمِ. غُرُوعٌ.. غُرُوعٌ!

* * *

لتحميل المزيد من الكتب الحصرية والرائعة
زوروا موقع جديد بدف

www.jadidpdf.com

www.jadidpdf.com



صباحٌ خامسٌ

«.. اصفرَّ وجهُهُ وهو ينظرُ إلى غيابِهما الوشيك. أرادَ أن يمضي وراءهما في التَّيه الأزرق لعلَّهُ يُعيدهما إلى حُضنه. نهَضَ عن الأرض. وقفَ على أطرافِ أصابعه ينظرُ بعيدًا. ابتلعتُهما الزُّرقة. لم يمدَّ يراهما. أخذَ يُلَوِّحُ بيديه. يصيحُ بهما: رَحَّال.. زينة! ثم أطبقَ أسنانه على طرفِ ثوبه وراح يركضُ كالمجنون!..»

.. فتحَ عينيه عن آخرِهما.
.. كأنه انتبه لتوِّه إلى صمتِ أيامه، عزلته في وحشة المكان.
مرَّرَ كفَّهُ على المساحة الفارغة من سريره البارد. وضع كفَّهُ الأخرى تحت منامته الرمادية يُمَرِّرها على جسده.
.. مالَ على جانبيه يُمسِكُ بالهاتف. لم يعث بأزراره يُهاثِفُ طليقته. بدا شارِدَ الذهنِ يُحمِلُ في السَّماعة. أعادها إلى موضعها ثم راح يحدِّقُ في شرح سقفيه.
«ويصيرُ الصَّمْتُ جوابًا»

في الثالثة عشرة كنت، أو الرابعة عشرة ربما، أمضيت وقتًا طويلاً في حوش الغنم، مُتدسِّاً تحت لوحٍ من الصَّفِيحِ أحطته بالوَّاحِ خشبيَّةٍ كنتُ قد شيدته مكانًا سرِّيًّا، في غفلةٍ من عمَّتي التي تركت بيت عمِّي وانتقلت للعيش معي في بيتنا بعد وفاة أُمِّي. لعلَّها تدري بما يجري

وتغض الطرف عن انتياصي في الحوش ساعات الظهيرة كل يوم. تضم ابنة فابقة ساقها إلى صدرها إلى جوارِي تُنصِتُ إلى أسئلتي. أصحح ما يقوله والذي. قاطعتني بنصف ابتسامة تستوضح. مردُّ «العبدية»؟ أطرقتُ مُبتلِعًا إجابتي، أنظر إلى أخمصَي قدَمَيها الملطختين بالحناء. أزرَق يعرف أن العبد لا يستقرون في مكان، يباعون ويشترون مثل أي شيء. كان بينكم يفضُّ بالعبد الذين يتاجر بهم، رجالًا ونساء. أطرقتُ. صحيح، أنذكركم فيما يشبه خلماً، صامتين، طردهم والذي من البيت، ولكن لماذا؟ أشاحت بوجهها صوب الباب المؤدي إلى البهو وقالت. كان غاضبًا على أحدهم، لا أظنك تذكره، طويلٌ أشهل العينين أصلع أسمر. خالفه في أمر ما ربّما، طرده وألحق به البقية. سألتها. وما شأن البقية؟ لَزِمَتْ صمتها قبل أن تقول. أزرَق لم يعد يُحبُّهم. زَفَرْتُ بضيق. والذي لا يُحبُّ أحدًا! ابتسمت زامة شفتيها بأسف وهي تهزُّ رأسها. أزرَق يُحبُّ أمك عِرزال. نظرتُ إلى شفتيها ساهمًا وقد كستهما صبغة بُيَّة تُناوِشُ احمرارًا. كيف اكتسبتا هذا اللون؟ ابتسمت كاشفةً عن أسنانٍ بيضاء نلجية. تدسُّ كفَّها بين نهديها. أطبلُ النظر في شاماتها الأربع فوق نهديها الأيسر. يُداهمني اضطرابي. نمُدُّ لي كفَّها المُحنَّاة بقطعةٍ نسيجيةٍ صغيرةٍ من الدُّيُرم، لحاء شجرة الجوز الهندية. تفحصتها. تشبهُ القرعة! هزَّت رأسها. ليست قرعة. رحتُ أقلبها في كَفِّي. يُمكنك أن تحتفظَ بها، قالت باسمه. تشمَّمْتُ رائحتها. أخفيتها في قبضة يدي. كيف هو طعمها؟ بهتت ابتسامتها تنظرُ إليّ. تذوّقه، قالت وهي تمعنُ النظر في عيني. أدنّت وجهها إلى وجهي. تسارعت دقات قلبي فيما كنتُ أنظرُ إلى

شَفِيهَا الدَّاكِنَتَيْنِ تَقْتَرِيَانِ. نَفَحَتْ رَائِحَةُ الرِّيحَانِ فِي ثِيَابِهَا. لَمْ أُغْمِضْ عَيْنَيَّ كَمَا فَعَلْتُ إِنَّمَا فَتَحْتُ عَيْنَيَّ عَلَى وَسْوَهِمَا. أَحْبَبْتُ مَا تَذَوَّقْتُ؛ ذَبْرًا كَانَ أَمْ شَيْئًا آخَرَ.

ابْتَعَدْتُ بِصَدْرِيهَا إِلَى الْوَرَاءِ. التَفَتْتُ إِلَى ثِيَابِ فَايِقَةِ عَلَى حَبْلِ الْغَسِيلِ. جَفَّتْ ثِيَابُ أُمِّي، لَعَلَّهَا نَأَتْ فِي أَيِّ وَقْتٍ.

منوال

.. أَيَّامٌ قَلِيلَةٌ وَتَطِيرَانٌ.. زِينَةٌ.. رَحَالٌ.. عِدَانِي بِأَنْكُمَا لَنْ تُطِيلَا الْغِيَابَ.

.. هَرَعٌ إِلَى النَّافِذَةِ مُسْرِعًا هَذِهِ الْمَرَّةَ. طَارَتْ فَيْرُوزُ. هَمَّ الصَّغِيرَانِ يَتْبَعَانَهَا. يَقِفَانِ عَلَى حَافَةِ الدَّكَّةِ بِقَوَائِمِهِمَا الْحُمْرَاءِ، يُصَفِّقَانِ أَجْنَحَتَهُمَا مِنْ دُونِ أَنْ تَتَزَحَّزَحَ أَقْدَامُهُمَا قِيدَ إَصْبَعٍ. يَجْضُلَانِ.. .. أَنَا مَنَوَالٌ.. وَمَنَوَالٌ لَا يُخَفِّفُ أَحَدًا.. مَنَوَالٌ لَيْسَ أَزْرَقُ!

«طَلْقَتَنِي فِي صَدْرِي قُطْنَتِي»

كَانَ ضُحَى الْعِيدِ. وَالْعِيدُ، كُلُّ عِيدٍ، بِهِجَةً قَبْلَ عِيدُنَا ذَاكَ. مَا صَارَ لِلْعِيدِ مَذَاقٌ حُلُوٌّ مِثْلَ صَارَ ذِكْرِي سَنَوِيَّةً لِحَدَثٍ أَكْرَهُهُ. أَكْرَهُنِي، يَوْمَ اجْتَمَعَ فِي بَيْتِ أَفْرَادِ عَائِلَتِنَا الْكَبِيرَةِ الْمُتَشَطِّطَةِ فِي كُلِّ مَكَانٍ. أَعْمَامِي وَزَوْجَاتُهُمْ وَأَبْنَاؤُهُمْ. لَمْ يَكُنْ فِي الْبَيْتِ إِلَّا عَمَّتِي وَفَايِقَةُ وَابْنَتُهَا وَأَنَا بِطَبِيعَةِ الْحَالِ. عَادَ وَالِدِي، مِنْ دُونِ إِخْوَتِي، مِنَ الْجَزِيرَةِ صَبَاحًا لِيَسْتَقْبِلَ إِخْوَتَهُ وَأَخَوَاتِهِ وَأَبْنَاءَهُمْ. انْدَسَسَ قَبْلَ مَجِيءِ الزَّوَارِ فِي حَوْشِ الْغَنَمِ لِنَصْفِ سَاعَةٍ قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ مُتَعَرِّقًا يَسْأَلُ عَمَّتِي أَنْ تُجَهِّزَ لَهُ حَمَّامًا سَاخِنًا.

تكدّس أبناء عمومتي من الأطفال في إحدى زوايا البهو، مقر فصين
 في ثياب العيد، يعدّون أوراقاً نقديةً، يتباهى واحدُهم بحصيلته من
 مالٍ حظي به من الأقارب والجيران. امتدّت جلسة الأهل ما يُقارب
 السّاعتين أمضيتهما صامتاً. حملت فابقة زُجاجة دهن العود في يد،
 ومبخراً يتصاعدُ منه دُخان البخور في يدٍ أخرى، تطوفُ مُنحنيةً على
 زوّارنا. التفت عُمّي الأكبر إلى إخوته مُفليّلاً ضحكةً مُجلجلةً أسفل
 شاربِه الأبيض، يُقرّبُ بكفّه دُخان البخور إلى وجهه وهو يقول. ما
 بعد العود قعوداً! تضاحك الجميع إزاء إعلان انتهاء الزيارة وقت حرق
 البخور. لملمت عُمّاتي عباءتهنّ قبل أن يصبحَ بهنّ والدي ضاحكاً.
 اقعداوا اقعداوا. أشار بيده صوب المسجد القريب. لم يؤدّن الظهر
 بعد! صاحَ بِقُطنة المكسورة في المطبخ منذُ الصباح. العصير يا بنت!
 ظهرت قُطنة بنوبٍ لا يُنبئُ العيد. مُطاطئةٌ تحمِلُ كؤوس العصير
 تغشّ رموشها بالكحل سائلاً. مضت ثقيلة الخُطى تطوفُ على الزوّار
 مُنحنيةً. دعاني والدي لأن أقرب منه. ربّت على المقعد إلى جواره.
 جلستُ مُنكمِشاً. أمسك بِكُفّي بهمسٍ في أُذني بما يُنبئُ فحيحاً
 تُخالطه رائحة الثّبغ. صح بالفناة: «بالعبدة»!

لا اتّسع عيني ولا ارتعاشات جسدي أنجدتني من نلبية رغبة
 والدي المريضة. قرصَ زندي كأنما بهمٌ بانتزاع قطعة من لحمي. صح
 بها! أخذ يتهجّى الحروف هامساً في أُذني: «يال عبدة».
 نضخَ جسدي عرفاً غزيراً وأنا أراقبُ قُطنة مُنحنيةً تطوفُ بكؤوس
 العصير لا تزال. لم أقوَ صبراً على احتمال الوجع في زندي. تحرّرتُ
 منه وقت صرختُ متوجّعاً بابنة فابقة. يال «عبدة»!

كأنما أصيبتُ بصممٍ على نحوٍ مفاجئٍ. خرستُ هبطاً على بهو البيتِ شلَّ السَّنةَ الحضورِ الذي صارَ واحدُهم ينظرُ إلى الآخر مُستفهِماً. لم أجروُ على القول، والذي هو الذي فعل، أقسمُ أنه هو، لكن الكلمة خرجت من فمي وكُلُّ زوّار العبد يشهدون. لن أنسى وجه قُطنة وقت انهمز الكُحلُ سخياً على وجنتيها، تنظرُ إليَّ زائغةً شفيتها لئلا تُفلتَ عبرة بكاء يفضحُ انكسارها صُبحاً. لن أنسى وجه عمّتي تنظرُ إليَّ صامتةً تتفهّم ولا تفهم. لن أنسى اعترافاً أوّل من والذي وهو يخلعُ عليّ رضاهُ هامساً: رجل!

لن أنسى نسياني لما حدث بين صرختي بِ قُطنة واستيقاظي من نوم لا أتذكر كيف بدأ أسفل السُّلم. أبقطني جفافٌ ربيقي. حبستُ ما جرى ليس إلا خلماً لولا رائحة البخور في بهو البيتِ تؤكّد لي. لم يكنُ خلماً! منوال

.. يعقّدُ حاجبيه يُضيّقُ عينيه كأنما يبحثُ عن شيء وراء البُخار المُتبعثِ من الماء المغلي. غطّسَ كفَّهُ اليمنى في القدر وهو يصيحُ بالصَّغيرين. زينة.. رَحاً!!! أخرجَ كفَّهُ مُلتهبةً ثم راحَ يركضُ كالمجنون. «صمتُ على صمت»

ركضتُ إلى حوش الغنمِ ورائحة بخور البهو تُركمُ أنفي. رائحةٌ مُحبّبةٌ كانت، مقبّبة صارت على نحوٍ لا أطيقه. وقفتُ لاهئاً وسط الحوش أصبح. قُطنة.. قُطنة! ثيابُ فايقه مُعلّقةٌ على حبل الغسيل. ثيابُ قُطنة لا. بحثتُ عنها في بيتِ الصّفيح والخشب، الحمام الصّغير

وكلّ مكان. لا أثر إلا لِقِطْعَةٍ دَرِمَ تُشَبِّهُ الَّتِي أُحْتَفِظُ بِهَا، عَثَرْتُ عَلَيْهَا
بين البرسيم اليابس إلى جوار مكانها على دَكَّة الغسيل، غير تلك القِطْعَةِ
النسيجية لا شيء! كأنما الفتاة لم نَمُرَّ مِنْ هُنَا وَلَمْ تَخْطُ ذِكْرِيَانَهَا فِي
هذا البيت قط! هَجَسْتُ بِقَوْلِ وَالِدِي. مَرَدُّ «العبدَةِ» إِلَى عَبْدٍ بِأَوْبَاهَا!
أَجَبْتُنِي. كَذِب! صَفَعْتَنِي حَقِيقَةً أَنْ لَا مُتَوَخُّ لِبَقَاءِ قُطْعَتِي فِي بَيْتِنَا. أَنَا
لَا أَفْهَمُ كَيْفَ يُتَاجَرُ وَالِدِي فِيمَا يَكْرَهُ! نَالَ بُغْيَتُهُ الْيَوْمَ مَرَّتَيْنِ؛ كَسَرَهَا
فِي حَوْشِ الْغَنَمِ صَبَاحًا، وَفِي بَهْوِ الْبَيْتِ أَمَامَ الضِّيُوفِ قُبِيلَ الظُّهْرِ.
قُطْنَةُ الْعَبْدَةِ، مَا الَّذِي يُجْبِرُهَا عَلَى الْبَقَاءِ!؟

ضَمَمْتُ سَاقِي إِلَى صَدْرِي وَأَسْنَدْتُ جَبِينِي بَيْنَ رُكْبَتَيْ مُؤْمَنًا
بِرَجُلِ ابْنَةِ فَايِقَةَ. لَا بَأْسَ، إِيْمَانِي بِرَحِيلِهَا لَا يَعْنِي كُفْرِي بِعَوْدَتِهَا.
رَحْتُ، كَأَنَّمَا أَصْلِي، أَرَدَدْتُ. حَمَامُ الدَّارِ لَا يَغِيبُ. حَمَامُ الدَّارِ لَا يَغِيبُ.
أَحَاوَلْتُ اسْتَفْرَازَ صَوْتِ الْفِتْنَةِ سَاعَاتٍ ضَعْفِي. سَاعَةٌ مَضَتْ. أَكْثَرُ رُبَّمَا.
شَدَدْتُ ذِرَاعِي حَوْلَ سَاقِي أَنْكَوَّرَ عَلَى ذَاتِي أَكْثَرُ، أَرَدَدْتُ تَعْوِذَاتِ حَمَامِ
الدَّارِ وَأَفْعَاهَا. أُرْهِفُ سَمْعِي أَتَحَرَّى هَاتِفًا مَالُوفًا.

منوال

أَفَلَتِ صُرَاخًا، وَهُوَ يَرْكُضُ كَالْمَجْنُونِ.. قَرَبَ كَفَّهُ الْمَلْتَهَبَةَ إِلَى
وَجْهِهِ وَقَدْ تَغَضَّنَ جِلْدُهَا وَتَوَرَّمَ وَاحْمَرَّ.. دَسَّ كَفَّهُ فِي كَيْسِ الثَّلَجِ
وَأَغْمَضَ عَيْنَيْهِ.. جَلَسَ عَلَى رُكْبَتَيْهِ. مَالَ بِرَأْسِهِ يُدْنِيهِ إِلَى سَبِيلِ الثَّلَجِ عَلَى
الْأَرْضِ. أَحَاطَ فَمُهُ بِكَفِّهِ وَهُوَ يَهْمِسُ. رَحَّالٌ.. زِينَةٌ.. أَنَا.. أَنَا أَسِيفُ.

«ضَجِيجُ الصَّمْتِ»

صَمْتُ لَا قَبِيلَ لِي بِهِ. مَا بَالُ هَاتِفِي نَائِمٌ عَلَى يَأْسِي لَا يَنْطِقُ بِمَا

أُحِبُّ؟ ماذا يعني رحيل قُطنة؟ واحدةٌ من أهل الدَّار كانت وينبغي أن تعود. رحتُ أَعُدُّدُ على أصابعي حماماتٍ أعرُفُها. أمي، الحمامةُ الأمُ التي غابت مكلومةً بغيابِ حماماتها على غير موعد لقاء. الحمامات الأربع اللاتي لم يَعدْنَ مُذَ رحيلهنَّ إلا عوداتٍ منقوصةٍ لا تُطفئُ ظمأَ اشتياق. ما عادَ الصَّوتُ حاضراً. ولم تُعدْ تمويزات حمام الدَّار وأفعالها تُجدي نفعا. سقطَ شيءٌ في داخلي. رفعتُ جبيني عن رُكبتَي أَتَلَفْتُ حولي ننهشني الرَبِيبَةُ والصَّمَت.

منوال

.. قصعةٌ خزفيةٌ وقعت من الخزانة وتهشمت. تجاهلها. تناولَ بندقية صيدٍ هوائية. مسحَ عنها الغبار بِكُم منامته. طوى سَبَطانها. نفخَ فيها. أَلَقَمَهَا طَلْقَةً ثُمَّ هرعَ إلى غرفةِ نومه.. هذه الحمامة غير جديرةٌ بالحياة!

«حمام الدَّار يغيب»

كنتُ مؤمناً بوجود ذلك الصَّوت، أردته أن يكون موجوداً وقت أوشِكُ أن أفقدُ أملاً. صوتٌ هُنا في هذا الصَّدر، رَطَبٌ يُلين صلابة صمت اليقين في رأسي. غاب إخوتي، غابت أمي، وبقيَ الهاتفُ على قيد موتٍ مؤجَّل، جاءَ أَجَلُهُ يَوْمَ فقد قُطنة. ماتَ الصَّوتُ في داخلي. ذهبَ مثلما جاءَ هادئاً ساكِناً. ذلك الذي لم أتيقن وجوده، رغم أنه موجود مثل شيءٍ أكيد، كان وقتَ غيابِ إخوتي وأمي يثني إيماناً بعودة الغائب، وغاب هو الآخر حاملاً معه وعوداً كاذبةً يَوْمَ رحيل قُطنة. حمام الدَّار قد يغيب، وأفعى الدَّار قد تخون. ما كنتُ لأنتبه إلى

موت إيماني الذي لم يكن إلا رغبةً مُلحَّةً لمستحيلٍ لولا الصَّمت الذي احتلَّنني على نحوٍ مُفاجئ. ما الذي كنت أتحزِّي سماعه؟ رحثُ أمِينُ التفكير. لا شيء! حاولتُ أن أنشَبْتُ بخيطٍ دقيقٍ سرعان ما انقطع. ذلك الهاتفُ القديم الذي كان يُردِّد...! لذتُ بصمني أسألني. يُردِّدُ ماذا؟! كان الهاتفُ يمدُّني بكلماتٍ لا أتذكُّرها. سألتني أخيراً.

أيُّ هاتفٍ؟!

منوال

.. أزاح قَدَميه ببطءٍ إلى حافةِ الدُّكَّة. ألصقَ ساقيه ببعضهما. بقي ساعاتٍ على حاله تلك..

ثم..

حطَّت زينة الجديدة على سعةِ النخلةِ القريبة ثانيةً في حين لا أثر لـ رَحَّال الذي غيَّته الزُّرقة.. انسحبَ بهدوءٍ إلى غُرْفَةٍ مكتبه قبل الغروب. أسندَ رزمة أوراقٍ على سطحِ المكتب، خطَّ عنواناً لأوَّلِ فصل: صباحُ أوَّل، ثمَّ غاب في كتابته إلى حين أذانِ الفجر. تنبَّه من غفلته. نظرَ غير مُصدِّقٍ إلى ساعة الحائط، ثمَّ إلى القلم بين أصابعه الملتهية. وضعَ فوقَ المخطوط النَّاقص ورقةً بيضاء صقيلة، وراحَ يخطُّ في زاويتها: نصُّ لقيط.

غاب في المطبخ يُعدُّ قهوته، ثمَّ أقفلَ إلى مكتبه يكتبُ مُقدِّمةً لنصِّه الأُحجية:

«إلى هنا يكفي هذا الهُراء»..



لتحميل المزيد من الكتب الحصرية والرائعة

زوروا موقع جديد بدف

www.jadidpdf.com

www.jadidpdf.com

«استيقظَ مدعورًا إثرَ صوتِ ارتطامٍ قريبٍ. فتحَ عينًا واحدةً ينظرُ ناحيةَ الصَّوْتِ وقد احتلَّ النُّورُ غرفته فجأةً. ألقى نوأميه في ثيابِ البحرِ وعَوَّاماتِ الأكتافِ، ينظرُان إليه وَجَلَيْنَ عندَ النافذةِ والسَّتارةِ بينَ أقدامِهِما على الأرضِ. صاحَ بهما مُعَنَّفًا. انتفضا. هو يقول هي. هي تقول هو. جلسَ على حافةِ الشَّريرِ يدعكُ عينيه. دخلت منيرةٌ باسمِة. لم يقصدا إسقاطَ السَّتارةِ. دفعهُما الحماسُ. أرادا إيقاظك وحسب. نظَّرت إلى ساعةٍ معصومها قبل أن تُردِف. وعدتُهُما البارحة بأخذِهِما إلى البحرِ، هل نسيت؟ تسارعَ وجيبُ قلبِه إزاءَ سماعِ الكلمة. البحرُ؟ قال مستفهِمًا وهو يُحلقُ في ثيابِ الصَّغِيرَيْنِ والعَوَّاماتِ تُحيطُ أكتافَهُما. التفتَ لزوجته. وعدتُهُما نزولًا عندِ الحاجكِ ولكن. بترَ جُمْلته وأشارَ إلى صَغِيرِهِ بيده أن يقتربا. نزعَ العَوَّاماتِ من أكتافِهِما وأمرُهُما بتغييرِ ثيابِ السَّباحةِ. أن نذهبَ إلى البحرِ لا يعني أنكما سوف تنزلان إلى الماءِ! قال بجِدَّة. طأطأ الصَّغِيران اللذان أمضيا ليلتَهُما البارحة نومًا بثيابِ البحرِ والعَوَّاماتِ. هزَّت منيرةُ رأسها آسفةً من دون أن تُعلِّقَ بكلمة.

على السَّاحِلِ المحاذي للمرسى، جلسَ ومنيرةٌ ينظرُان إلى التوأمينِ الجالسينِ يُشَبِّدانِ بيوثًا من الرَّمْلِ وصخورِ البحرِ عندَ التقاءِ الماءِ باليابسةِ. بقيَ مُتملِّمًا في جلسَتِهِ مُتأهبًا لطارئٍ يخشاه. تُرَبَّت منيرةٌ على رُكبَتِهِ. لا تُبَالِغ. يبدو أنه لا يسمعُ قولَها. لا يسمعُ ضحكك

الصَّغِيرِينَ. لَا يُنْصَحُ إِلَى شَيْءٍ إِلَّا هَدِيرُ الْمَوْجِ الْهَادِي يُتَعَاقَبُ فِي
إِقْبَاعِ رَتِيبٍ. بَدَا فِي صِرَاعٍ بَيْنَ أَنْ يُرَاقِبَ نَوَاقِيهَ أَوْ أَنْ يَصْرِفَ نَظْرَهُ
عَنْ زُرْقَةٍ تَوَاجِهُهُ بِصَدْرِهَا، تِلْكَ الزُّرْقَةُ الَّتِي تَجِيءُ بِإِخْوَتِهِ يَوْمَ غَدٍ،
يَأْذُونَ طَقْسًا قَدِيمًا.

ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ الطِّينِي أَمَامَهُ، مَرَصَّعٌ بِالْقَوَاقِعِ الَّتِي ثَبَتَهَا الصَّغِيرَانِ
عَلَى وَاجِهَاتِهِ. انْسَحَبَتْ مِيَاهُ الْبَحْرِ بِسُرْعَةٍ مُرِيَّةٍ، خَلْفَتْ وَرَاءَهَا أَرْضًا
سَبِيخَةً. التَّفَتَا يَتَّبِعَانِ وَجْهَةَ الْمَاءِ. ظَهَرَتْ سَفِينَةٌ عِمْلَاقَةٌ فِي الْأَفْقِ،
حَالَتْ دُونَ إِدْرَاكِ مِيَاهِ الْمَدِّ لِلسَّاحِلِ. مَوْجَةٌ عِمْلَاقَةٌ ظَهَرَتْ مِنْ وَرَاءِ
السَّفِينَةِ. تَقْتَرِبُ بِسُرْعَةٍ، تَنْقُضُ عَلَى رِمَالِ السَّاحِلِ تَنْثُرُ زَبْدًا يُخَالِطُ
طِينًا عَلَى الزُّوجِينَ. هَرَعَتْ مَنِيرَةٌ نَخَوْضُ فِي الْبَحْرِ الْمُضْطَرِبِ إِلَى
مَا فَوْقَ صَدْرِهَا. تَشْنَجُ جَسَدَهُ. تَعَالَتْ صَيْحَاتُ الصَّغِيرِينَ. يُبْهَ! يُبْهَ!
أَصْفَرَّ وَجْهُهُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى غِيَابِهِمَا الْوَشِيكِ. أَرَادَ أَنْ يَمْضِي وَرَاءَهُمَا
فِي التِّيهِ الْأَزْرَقِ لَعَلَّهُ يُعِيدُهُمَا إِلَى حُضْنِهِ. نَهَضَ عَنِ الْأَرْضِ. وَقَفَ
عَلَى أَطْرَافِ أَصَابِعِهِ يَنْظُرُ بَعِيدًا. ابْتَلَعَتْهُمَا الزُّرْقَةُ. لَمْ يَغْدُ يَرَاهُمَا. أَخَذَ
يُلَوِّحُ بِيَدَيْهِ. يَصْبِيحُ بِهِمَا: رَحَالٌ.. زِينَةٌ! ثُمَّ أَطْبَقَ أَسْنَانَهُ عَلَى طَرَفِ ثَوْبِهِ
وَرَاحَ يَرْكُضُ كَالْمَجْنُونِ.

يَنْهَضُ مَنْوَالٌ غَارِقًا فِي عَرْقِهِ إِثْرَ اكْتِمَالِ كَابُوسِهِ. لَاهِيًا يَعْتَدِلُ
جَالِسًا عَلَى سَرِيرِهِ فَاتِيحًا عَيْنَيْهِ عَلَى وَسْعِهِمَا. أَدَارَ وَجْهَهُ شَطْرَ نَافِذَتِهِ.
زِينَةُ الْجَدِيدَةِ مَا زَالَتْ رَابِضَةً هُنَاكَ. أَسْرَعَ خُطَاهُ إِلَى خَزَانَةِ الْمَمَرِ.
فَتَحَهَا وَمَدَّ كَفًّا مُرْتَعِشَةً بَيْنَ أَشْيَائِهِ الْقَدِيمَةِ. أَمْسَكَ بِجَرِيدَةٍ مُصْفَرَّةٍ
أَوْرَاقَهَا لَمْ يَفْتَحْهَا إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً صَبَاحَ أَمْسٍ مُوْغِلٍ فِي الْبُعْدِ. بِحُلُقٍ
فِي خَبَرٍ احْتَلَّ صَدْرَ الصَّفْحَةِ الْأُولَى.

في ليلة البحث الثانية

الإدارة العامة لخفر السواحل: العثور على الطفلة المفقودة

كتب المحرر الأمني

بعد مرور ما يقارب ست وثلاثين ساعة على حادثة اختفاء توأمي ساحل المرسى وبعد العثور على جثة الطفل الغريق (ر.م) عثر رجال خفر السواحل ليلة أمس على الطفلة (ز.م) في حالة صحية حرجية وهي متشبثة بحبل إحدى عوامات السلامة الشرقية على بعد 800 ياردة جنوب شرقي ساحل المرسى، وقد أكد الأطباء أن حالة

الطفلة مستقرة في وحدة العناية الفائقة في مستشفى العاصمة، فيما أكد فريق أطباء مختص صعوبة الحالة إثر تلف خلايا المخ بسبب انقطاع الأكسجين. وذكر مدير الإدارة العامة لخفر السواحل العميد بحري عبدالعزيز التميري أن وحدات البحث والإنقاذ والتي تتكون من 7 زوارق ومروحيتي مراقبة لم تعثر في البدء.. التتمة (ص) 3.

أطبق منوال الجريدة. استدارَ يمشي ببطء نحو النافذة في غرفته. وقف على دكّتها يرنو إلى تلاقى البحرِ بالسّماء في حين استقرّت الحمامةُ الجديدة زينة على طرفِ الدُّكّة من دون حراك. أحكم قبضته على جريدته القديمة. أغمض عينيه ثم..

بقي ساعاتٍ على حاله تلك.. ثم..

أخذ يترنّم وهو يستدعي صوت أمّه.

يا نظير عيوني، ودّعتك الله، يا نظير عيوني
نحت أنا لو أبراء، نوح الحمامة، نحت أنا لو أبراء

فَتَحَ عَيْنِيهِ الَّتِي رَأَتْ كُلَّ شَيْءٍ. نَفَخَ صَدْرَهُ. بَاعَدَ بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ.
ثَنَى سَاقِيَهُ يَهْمُ بِالْقَفْزِ.

غُرُووُوعٌ.

ثُمَّ..

سَمِعَ طَرَقًا عَلَى بَابِ شُقَّتِهِ.

لَنْ تَتِمَّ

الدَّرَجُ السُّفْلِيُّ

تم تحميل الكتاب من موقع جديد بدف

لتحميل المزيد من الكتب الحصرية والرائعة

زوروا موقع جديد بدف

www.jadidpdf.com

«كُلُّ مَنْ عَاشَ فِي الدَّارِ يَصِيرُ مِنْ أَهْلِهَا؛ حِمَامُ الدَّارِ لَا يَغِيبُ
وَأَفْعَى الدَّارِ لَا تَخُونُ، هَذَا مَا قَالَتْهُ لِي بِصِيرَةٍ قَبْلَ سِتِّينَ مِنْ يَوْمِنَا
ذَٰكَ، جَدَّةُ وَالِدِي، أَوْ رُبَّمَا جَدَّةُ جَدَّتِي، لَا أَدْرِي فَهِيَ قَدِيمَةٌ جَدًّا،
أَزَلِّيَّةٌ، سَاكِنَةٌ فِي زَاوِيَةِ بَهْوِ الْبَيْتِ الْعَرَبِيِّ الْقَدِيمِ، مَلْتَحِفَةٌ سَوَادَهَا
أَسْفَلَ السُّلَمِ. لِمَاذَا أَسْفَلَ السُّلَمِ؟ لَمْ أَسْأَلْ نَفْسِي يَوْمًا عَنْ
مَوَاضِعِ أَشْيَاءٍ اعْتَدْتُهَا مُنْذُ مَوْلَدِي، فِي بَيْتٍ عَرَبِيٍّ تَطُلُّ حُجُرَاتُهُ
الضَّبَقَةَ عَلَى بَهْوٍ دَاخِلِيٍّ غَيْرِ مَسْقُوفٍ، بَهْوٍ بِصِيرَةٍ الَّتِي لَمْ أَرَهَا
تَفْتَحُ عَيْنَيْهَا يَوْمًا، كَأَنَّمَا خِيطٌ جَفَنَاهَا بِرَمُوشِهَا مُنْذُ الْأَزَلِ».



مصدره أيضاً عن الدار:



منشورات دفاف
DIFAF PUBLISHING

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbbooks.com